الفصل الرابع

أثر الغزو المغولى على الحياة الفكرية في إقليم خوارزم المغول

●●●●●●●

أولا: المغول:

كانت قبائل المغول التى نشأت فى النهضة المعروفة بهضبة منغوليا[١] شمال صحراء جوبى[٢] من أهم وأبرز هذه القبائل[٣]، وكانت تعيش عيشة بدوية لا تعرف معنى الحضارة، كما كانت تتجول فى شمال صحراء جوبى، وتسعى وراء العشب والنبات[٤].

هذه الظروف الجغرافية، والعيشة الصحراوية التى تعيش فيها هذه القبائل، فقد كانت الجبال المحيطة بهذه الضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف، أما فى الشتاء فنرى مناخها شديد البرودة، فكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها، بحيث لم تشاهد إلا فى أماكن متفرقة[٥]، كما كان يجاور المغول[٦] طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه بحياة المغول أنفسهم، وكانت طبيعتهم لا تساعد على

---

(١) منغوليا: هى مملكة متاخمة لبلاد الصين ويسكنها جنس من الترك. ابن عرب شاه: (أحمد بن محمد)، ت٨٤٥هـ/ ١٤٠٥م، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تقديم وتحقيق وشرح د/ محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.

(٢) جوبى: لفظ مغولى معناه "الصحراء الجدباء الخاوية" فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية(١)، ص١٦١، لمزيد من التفاصيل راجع: ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسن، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، ج١، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص١١٤، حواشى الفصل السادس والثلاثين، ط١، ص٢٥٤.

(٣) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتى، ص١١، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٢٦.

(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص٩، الساداتى: محاضرات فى التاريخ الإسلامى ص١٨٨.

(٥) حافظ أحمد حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ط١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٢٩.

(٦) عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص١٨، محمد عبد العظيم: تاريخ المسلمين وحضارتهم فى آسيا، ص١١٠.

التعايش مع جنس آخر، كما كانوا يعيشون على البداوه وسكن الخيام والترحال الدائم، والسعى إلى الكلأ والغارة على الممالك العامرة وعلى الصين وما وراء النهر وإيران[١].

هكذا عاش المغول هذه الظروف البيئية الصعبة والحياة المناخية القاسية حيث كان المغول فى العصر الذى نتحدث عنه، يحتلون الأراضى الواقعة بين بحيرة بيكال فى الغرب، وجبال كنجان على حدود منشوريا فى الشرق[٢].

من هذا المسح الموجز للوضع الجغرافى لهذا الجزء الذى يسكن فيه الغول، يتضح أن الغول قبائل رحل، لا تعرف المدينة ولا الحضارة، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات، والمنافسات، والتنقلات، سعيا وراء الرزق والمعيشة، لا منطق بينهم إلا القوة ولا حكم إلا بالسيف[٣].

على أن هذه الفوضى الاجتماعية السائدة فى هذه الأماكن كانت فى حاجة ملحة إلى الإصلاح على يد زعيم يخرج من بين هذه القبائل، فيتمكن من توحيدها ثم النهوض بها[٤]. وكان الزعيم هو "تيموجين"[٥] الذى استطاع بدهائه أن يجمع شمل القبائل المغولية المتفرقة، وأن ينصب نفسه خاقانا عليها سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م، ثم بدل اسمه إلى جنكيز خان[٦]، إيلا أعظم الحكام، أو إمبراطور البشر، واتخذ من مدينة قرة قورم[٧] حاضره لملكه[٨].

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٤٧.

(٢) حافظ حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص١٢٩

LAMP: Genghis Khan; The Emperor of All Men, (London1934) P.25

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، جزءان، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٩٨٠م، ج١، ص٣٣، ٣٤.

(٤) حافظ أحمد حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص١٢٩، عفاف سيد صبرة: التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ط١، نشر دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٥) تيموجين: لفظ صينى معناه الصلب الفائق، ومنها "تيمورج" بمعنى الحداد ومن معانيها أيضا الفارس الكامل. السيد الباز العرينى: المغول، نشر دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص١١٠، ١١١

(٦) جنكيز خان: جنكيز تعنى القوة، مكونة من مقطعين الأول "جين" ومعناه فى اللغة المغولية "العظمة"، والثانى "كيز" ويعنى الأكثر أى أنها الأكثر عظمة وقوة، وتذكر دائرة المعارف التركية أن كلمة "جنكيز" مشتقه من الكلمة التركية Dinez أى البحر. لمزيد من التفاصيل راجع الجوينى: عطا ملك الجوينى، ت٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، ترجمة د/ السباعى محمد السباعى، المجلد الأول، نشر دار الزهراء، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٤٢.

(٧) قرة قورم: وتسمى أيضا قراقورم من أماكن بلاد التـرك الشرقية، بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومة وواو ساكنة وميم، معناه بالتركية الرمل الأسود، وهى قاعدة المغول. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٥٠٥ 504:، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨٠.

(٨) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٢٨، فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٦٣.

واستطاع جنكيز خان السيطرة على غالبية المنطقة المغولية، بالسيطرة أحيانا، وبالحرب أحيانا، كما قضى أياما عصيبة وقاسية[١]، كل ذلك أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات، وصنع منه رجلا صلبا حديديا أدهش العالم[٢].

وبذلك أصبحت مساكن المغول بقيادة جنكيز خان، تجاور لدولة كبيرة هى دولة الأتراك القراخطائيون، كما كان شاطئ نهر سيحون[٣] هو الحد الفاصل بين هذه الدولة وأقاليم الدولة الخوارزمية[٤].

ولقد تمكن جنكيز خان من السيطرة على جميع القبائل التى كانت تخضع لدولة الأتراك القراخطائيون، ودخلت جميع القبائل التركية تحت السيطرة المغولية، مما نتج منه مجاورة جنكيز خان لأملاك الدولة الخوارزمية، فأصبح الاصطدام متوقعا بين الطرفين فى كل لحظة ما دامت أسبابه ودوافعه متوفرة عندهما والمتمثلة فى مطامع جنكيز خان ورغبته فى التوسع[٥].

ثانيا: العلاقة بين المغول والدولة الخوارزمية قبيل الغزو المغولى:

بعد أن جاورت أملاك المغول ممتلكات الدولة الخوارزمية، نتج عنه بداية فى العلاقات بين المغول والدولة الخوارزمية. فأصبح الصدام متوقعا بين الطرفين.

كان أول صدام بين الدولة الخوارزمية والمغول، وأن اختلف الروايات فى تحديد زمن أول ما وقع من صدام بين جيوش جنكيز خان، وعساكر خوارزمشاه، فمن هذه الروايات ما يشير إلى أن المغول لم يشتبكوا فى قتال الخوارزمية إلا سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م، أى بعد القضاء على الدولة القراخطانية[٦].

على أن الثابت أنه أنه فى شتاء (٦١٢ هـ / ١٢١٥ - ١٢١٦ م) كان الصدام الأول، حيث مر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بمدينة جند (بالقرب من نهر

---

(١) الجوينى: جهان كشا، مج١، ص٤٢، السادتى: محاضرات فى التاريخ الإسلامى، ص١٨٨

(٢) عفاف سيد صبره: التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص١٥٣.

(٣) نهر سيحون: بفتح أوله وسكون ثانية وحاء مهملة وأخره نون، نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجنده بعد سمر قند يجمد فى الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل وهو فى حدود بلاد الترك. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٣، ج٥، ص١٠٢.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٤٩، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص١٩٢٠:.

(٥) عبد السلام فهمى: المصدر السابق، ص٢٠ وما بعدها.

(٦) السيد الباز العربنى: المغول، حاشية١، ص١١١.

جيحون وقبالة بلاد تركستان) قاصدا صحراء قرغيز موطن عشائر القبجاق[١]. وهناك وجد فرقة من جنود جنكيز خان بقيادة ابنه جوجى بغرض مطاردة المتمردين المغول، ولم يكن جوجى وسائر قواده يميلون إلى قتال المسلمين. لذا فقد أرسلوا رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد ينبئونه فيها أنهم لن يوفدوا من قبل خان المغول، إلا لصد المتمردين ومطاردة الفارين. فتلبس الغرور السلطان محمد خوارزمشاه فرد بأن الكفار عنده جميعا سواء وكلهم أعداء للمسلمين، وأصدر أمرا بمهاجمة جند جنكيز خان . ولم تسفر المعركة عن نتيجة[٢]. فقد أبدى جوجى وأتباعه بسالة فى النهار، وأشعلوا النيران فى جنح الليل ولاذوا بالفرار، وعاد السلطان محمد إلى سمرقند فى صيف ٦١٣هـ/ ١٢١٦م[٣].

وكان لهذا الصدام تأثير كبير على فكر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، فقد أظهرت له القوة العسكرية للمغول. وكان ذلك من الأسباب التى أجبرت خوارزمشاه على التقهقر وتجنب مواجهة هؤلاء القوم على أرض القتال[٤]. واوفد السلطان محمد خوارزمشاه بعد الوقوف على قوة المغول الرسل برسالة إلى جنكيز خان، بقيادة السيد الأجل بهاء الدين الرازى، وذلك للتأكد من هذه القوة العظيمة للمغول[٥].

استقبل جنكيز خان وفد خوارزمشاه محمد بكل احترام، وأرسل معهم برسالة يقول فيها للسلطان ان جنكيز خان يعد نفسه ملكا على الشرق، كما يعد خوارزمشاه حاكما على الغرب، وأنه يتطلع إلى السلام بينهما وإلى حرية حركة القوافل والتجار بين بلاد خوارزم وجنكيز[٦] .

وتأكيدا لهذه الرابطة التجارية التى اقترحها جنكيز خان، فقد أرسل مع السفير الخوارزمى ثلاثة سفراء من التجار المسلمين وهم محمود يلواج الخوارزمى، وعلى خواجه البخارى، ويوسف كنكا[٧] الأترارى[٨]، وحملت إلى خوارزمشاه الهدايا الثمينة من

(١) القبجاق: قبائل بدوية وكانوا يحفون بحدود البلاد الإسلامية الواقعة فى جنوب بلادهم، كما كانوا جيرانا للخوارزميين . بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٧٧، العرينى: المغول: ص ١١٢، ١١٣.

(٣) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين، ص ٤٨.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦١.

(٥) الجوينى: جهان كشا، مج ١، ص ١٦٩.

(٦) عباس إقبال: تاريخ، ص ٦٢.

(٧) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ٨٣، الجوينى: جهام كشا، مج١، ص ١٧١.

(٨) الأترتارى: نسبة إلى مدينة أترار أو أطرار، وهى مدينة فارابل. كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، =

الذهب والأحجار الكريمة والمسك والأثواب المصنوعة من وبر الإبل والتى لا تهدى إلا للسلاطين[١].

وقبل السلطان إقرار هذه المعاهدة، فقد سلمه الرسل هذه الرساله[٢] التى وجهها إليه جنكيز خان، والتى تشتمل على طلب المسالمة والموادعة وسلوك مسلك المجاملة[٣].

ويقول النسوى[٤]: أن السلطان استحضر محمود يلواج الخوارزمى ليلا دون سائر اللاسل، وقال له: إنك رجل خوارزمى ولا بد لك من موالاة فينا وميل ن ووعده بالإحسان أن يصدقه فيما يسأله وأعطاه جوهرة نفيسة دليل وفائه بما وعد وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكيز خان، فأجابه إلى ما سئل، رغبة ورهبة، ثم قال: أصدقنى فيما يقول جنكيز خان إنه ملك الصين، واستولى على مدينة طمغاج[٥]. أصادق فيما يقول، ام كاذب؟ فقال: بل صادق. ومثل هذا الأمر العظيم ليس بخفى حاله، وعن قريب يتحقق السلطان من ذلك. فقال السلطان: أنت تعرف ممالكى وعساكرى وكثرتها فمن هذا اللعين حتى يخاطبنى بالولد؟ وما مقدار ما معه من العساكر؟ فلما شاهد محمود الخوارزمى آثار الغيظ، وتبدل لطف الكلام بالخصام، أعرض عن النصح ومال إلى الاسترحام، وقال: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيوش، إلا كفارس فى خيل، ثم أجاب السلطان بالقبول على المهادنة مع جنكيز خان، وأعاد الرسل إلى بلاد جنكيز خان يحملون الرد بقبول الاتفاق فسر جنكيز خان بذلك[٦].

=ص ٥٢٨، فأراب هذه تقع وراء نهر سيحون فى تخوم بلاد الترك. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٣، ج٦، ص ٤٠٦، راجع دائرة المعارف الإسلامية، مج٩، نشر دار الشعب، القاهرة، بدون، ص ٥٥.

(١) العرينى: المغول، ص١١٩، ثروت عكاشة: إعصار من الشرق (جنكيز خان)، الطبعة، الخامسة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع نص الرسالة النسوى: المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٤، الجوينى: المصدر السابق، ص ١٧١، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣، العرينى: المغول، ص ١١٩، ١٢٠، ثروت عكاشة: إعصار من الشرق، ص ١٦٠.

(٣) النسوى: المصدر السابق، ص ٨٣، فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ج١، ص ١٠١.

(٤) النسوى: المصدر السابق،/ ص ٨٣ – ٨٥، الجوينى: المصدر السابق،ة ص ١٧١، ١٧٢، عفاف صبره. التاريخ اليساسى، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٥) طمغاج: هى أول بلاد الخطأ التى كانت تفصل بن أملاك المغول فى الشرق وأملاك الدولة الدولة الخوارزمية فى الغرب، وكان صاحبها مسلم يقال له: محمود لواجا أصله من خوارزم، وكطان يحمل الأموال للمغول، والحرير فى بلادهم كثير، ويقال أن عندهم معدن الذهب والفضة بكثرة أبو الفدا:/ تقويم البلدان، ص ٥٠٦.

(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٨٣ – ٨٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، المصدر السابق، ص ١٠٠، ١٠١.

استمرت المهادنة والمسالمة بين جنكيز خان والسلطان محمد خوارزمشاه إلى أن وصل من بلاد المغول أربعة تجار إلى مدينة أترار، هم عمر خواجه الأترارى، والحمال المراغى[١]، وفخر الدين الدتركى البخارى، وأمين الدين الهروى[٢] .

وكان هؤلاء التجار الأربعة بصحبة جمع غفير من رسل جنكيز خان (ما بين ٤٠٠ و٥٠٠)، ومعهم الكثير من البضائع النفيسة من ذهب وفضة وحرير وأقمشة ومسك وأحجار كريمة، وادخلوا مدينة أترار، أولى مدن الدولة الخوارزمية[٣]. وكان أمير أترار هو "ينال خان"[٤] وهو خال السلطان علاء الدين محمد، وكان ينوب عنه على بلاد ما وراء النهر ومعه عشرون ألف فارس[٥] " فشرفت نفسه إلى أموال التجار وكاتب السلطان يقول: أن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى اترار فى زى تجار، ولبسوا بتجار بل أصحاب أخبار - جواسيس - يكشفون منها ما ليس من وظائفهم، إذا خلوا إلى واحد من العوام يهددونه ويقولون: إنكم فى غفلة مما ورائكم، وسيأتيكم مالا قبل لكم به . وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه . ولكنه قبض عليهم، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم، وتفرد "ينال خان" بتلك الأموال العدة، والأمتعة المنضدة، مكيدة منه وغدرا، وكان عاقبة أمره خسرا[٦].

وهكذا نرى أن السلطان وفقا لما أورده النسوى لم يأمر بقتلهم، بل أمر نائبه بالبقاء عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه .

ويرى ابن الأثير[٧]: أن ينال خان "حاكم أترار، قد بعث إلى خوارزمشاه بعلمه

(١) المراغى: نسبة إلى مدينة مراغة، مدينة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج٨، ص ٢٣٨، ومراغة مدينة حسنة كثيرة الخصب والفواكه لها بساتين وزراعات وغلات وخيراتها شاملة الإدريسى: نزهة المشتاق، مج٢، ص ٤٧١ .

(٢) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٨٥، بارتولد: تركسان، ص ٥٦٨، الهروى: نسبة إلى مدينة هراة: بالفتح، مدينة عظيمة مشهورة من أمهات خراسان، وفيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، دخلها المغول فخربوها فى سنة ٦١٨هـ، ١١٢١م، وياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٨، ص ٤١٧ .

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٤ .

(٤) ينال: لقب عسكرى، حيث كان الغز والأتراك عادة يطلقون أسماء اليونان الجميلة أو القوية على أشخاص قوادهم، وهذه الأسماء التى اشتهر بها قواد السلاجقة والخوارزميين مثل سوباشى، ألقابا وليست أعلاما فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية ١، ص ٢٢٨ .

(٥) السيوطى:/ تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣ .

(٦) النسوى: المصدر السابق، ص ٨٥، ٨٦، عطاملك الجوينى: جهان كشا، ص ١٧٤ .

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ٤٠١، ابن واصل: جمال الدين محمد الدين ابن سالم، ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧م، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، حققة، وضع حواشية د./ ، حسين محمد ربيع، راجعة وقدم له د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، ٥ أخبار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ج٤، ص ٣٨، فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥٨ .

بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزمشاه يأمر، بقتلهم، وأخذ ما معهم من الأموال، وإنفاذه إليه، فقتلهم وسير ما معهم، وكان شيئا كثيرا، فلما وصل إلى خوارزمشاه فلاقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم.

ولقد ترك ما حدث لهؤلاء التجار أثاره السيئة على نفسية جنكيز خان، فمعظم ذلك عنده، وتأثر منه وهجره النوم، وصار يحدث فى نفسه ويفتكر فيما يفعله، وقيل أنه صعد إلى رأس تل عال وكشف رأسه وتضرع إلى البارى تعالى طالبا نصره على من باداه بالظلم وبقى هناك ثلاثة أيام بلياليها صائما[1]. وقرر أن يرسل وفدا إلى السلطان محمد خوارزم مشاه على رأسه رجل يدعى "كفرج بغرا"، وكان أبوه من أمراء السلطان تكس والد السلطان محمد، مصحوبا بشخصين من المغول ومعهم رسالة فيها "أنك قد أعطيت خط يدك بالأمان للتجار ولا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح فإن كنت تزعم أن الذى أرتكبه "ينال خان" كان من غير أمر صدر منك، فسلمه إلى، لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء، وتسكينا للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح، وتتعضد معها عوالى الرماح"[2]. إلا أن السلطان علاء الدين محمد لم يذعن لمطلبهم، لأن معظم جنود جيشة وقاداته العسكريين كانوا من أقرباء "ينال خان"، وكان السلطان نفسه أداة فى أيديهم كما أن "تركان خاتون"[3] والدة السلطان كان لها من النفوذ فى السلطة، يدعمها فى ذلك قوة أتراك عشيرة القانقلى[4] ما

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٠.

(٢) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٨٧، الجوينى: جهان كشا، ص ١٦٧.

(٣) تركان خاتون: لفظ معناه السيدة. الفروسى: أبو القاسم، ت ٤١٦هـ، ١٠٢٥م، الشاهنامة، ترجمة د/ عبد الوهاب عزام، ط٢،/ نشر دار سعاد الصباح، ج٢، ص ٣٤١.
ويستعمل فى الغالب فى معانى التبجيل والاحترام: النسوى: سيرة جلال الدين، حاشية ١، ص ٤٤.
وتركان خاتون، زوجة علاء الدين تكش خوارز مشاه، ت٥٩٦هـ، ١١٩٩م، وتنسب إلى قبيلة قانغلى (كانكلى)، التى تسكن فى شمالى إقليم خوارزم، وقد أنجبت له علاء الدين محمد، وكان لهذه المصاهرة أثر كبير فى سياسة الدولة الخوازرمية الداخلية بوجه خاص فى عهد علاء الدين محمد، إذ نزح عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى أراضى الدولة الخوارزمية، وتكونت منهم عصبة كبيرة فى جوف الدولة، أخذت تحكم بالتدرج فى وظائف الدولة ومواردها وتناهض قوة السلطان نفسه. النسوى: سيرة لسلطان جلال الدين، حاشية ٣، ص ٦٢.

(٤) القانقلى: شعب يذكر دائما فى الصادر التاريخية مع شعب القبجاق، ولكن محمود الكشغرى يكر كلمه قانقلى على أنها اسم لأحد عظماء القبجاق لا على أانها اسم شعب، ويقول أيضا أن كلمة قانقلى معناها (عربة).
بارتولد: تاريخ الترك، طبعة الهيئة المصرية العامة، للكتاب، ص١٣١.

كانت لتدع خـوارزمشاه يغامر بتـسليمه، ولم يوافق على طلب جنكيز خـان، وأمر بقتل رسله جميعا[١] فيالهـا من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكـل نقطة سيلا من الدم الحرام[٢] .

وقد علق الجوينى[٣] على مقتل هؤلاء التجار بقوله "أن كل قطرة من دمائهم، قد كفـر عنه المسلمون بسـيل من الدماء كمـا كلفتهم كل شـعرة من رؤسـهم مائة ألف من أرواحهم، ودفعوا فى مقابل كل دينار ألف قنطار" .

وتعتبـر هذه المذبحة هى السبب الجوهـرى فى الغزو المغولى على البلاد الإسـلامية حيث تعتبر مذبحة أترار هى بداية الصراع الذى جر الوبال على البلاد الإسلامية[٤] .

قـبل البـدء فى الحديث عـن الغزو المغـولى لإقليم خـوارزم، لابد لنا أن نتـتـبع الاستعدادت التى تمت من كلا الطرفين المغولى والخوارزمى، قبل الوصول إلى خوارزم .

بدأ جنكيز خان ترتيب جيوشه وفق خطة محكمة، وهى توجيه ضربة للخوارزميين عبر أربع جهات، لذلك قام بتقسيم جيـوشه إلى أربعة جيوش كل منها موجه إلى منطقة بعينها .

الجيش الأول بقيادة ابناه "جـغتاى وأوكتاى" وهذا الجيش قوامـه تومان (والتومان بالمغولية عشرة آلاف) ومكلفة بفتح أترار[٥] .

والجيش الثانى بقـيادة ابنه الأكبر جوجى، وكلف بفـتح مدن نهر سبحـون (خاصة مدينة جند)[٦] .

والثالث وهو عـبارة عن فرقـة صغيرة قـوامها خـمسة ألاف كلفت بفـتح مدينتى خجند[٧] وبناكت[٨]، والاستيلاء عليهما[٩] .

---

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص،٦٤ باتولد: تركستان، ص ٥٧٠.
(٢) النسوى: المصدر السابق، ص ٨٨.
(٣) جهان كشا، ص ١٧٩، فامبرى: تاريخ بخارى، ١٥٨: ١٥٩.
(٤): عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص ٥٥.
(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦.
(٦) بارتولد: تركستان، ص ٥٨٠.
(٧) خجـند: بضم أوله وفتح ثانيـة ونون، ثم دال مهـملة، وهى بلدة مـشهـورة بما وراء النهر على شـاطئ سيحون. ياقوت الحموى، معجم البلدان، مج٢، ج٣، ص ٢١٦.
(٨) بناكت: بالفتح: بالفتح وكسـر الكاف وآخره تاء وفوقها نقطتان، مدينة بما وراء النهـر، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ١، ج٢، ص٣٩١.
(٩) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٣.

والرابع ويتكون من أغلب المغول، وعلى رأسه جنكيز خان نفسه، كما سار معه ابنه تولوى، قاصدا وسط أقاليم ما وراء النهر، وخاصة بخارى[١] .

أما عن السلطان علاء الدين محمد فقد بدأ فى إعداد جيشه فبدأ أولا ببناء سور على مدينة سمرقند يبلغ اثنى عشر فرسخا وشحنه بالرجال المقاتلين، وفرق عماله وجباته فى جميع البلاد، وأمرهم بجمع الخراج عن عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م، من اجل بناء سور سمرقند، وبعث بجباه آخرين إلى جميع الممالك الإسلامية وأمرهم بجباية خراج ثالث فى سنتهم تلك، على أن يستخدم بها رجال رماه مكمله العدة، ويكون عدد رجال كل جهة على قدر ما يحصل منها من المال قليلا كان أو كثيرا، يكون لكل واحد منهم جمل يركبه ويحمل سلاحه وزاده، فاستخدموهم أسرع ما يكون[٢] .

كما تشاور السلطان علاء الدين محمد مع الإمام شهاب الدين الخيوقى الذى كان مقربا عند السلطان فأشار عليه بأن الصلاح فى أن يكتب إلى عماله على أطراف مملكته وأن يحشد الجند للدفاع عن ديار الإسلام، وأن يمنع المغول من المرور بضفاف نهر سيحون، لكن أمراء الجيش لم يوافقوا على هذا الرأى، وقالوا أن الاصلح هو السماح بتقدم المغول إلى ما وراء النهر وبلوغ الجبال والمعابر الوعره، التى لا يعرفون طرقها ومسالكها، فننقض ونجهز عليهم[٣]، وقام بتوزيع جيشه وأمرائه على مدن ما وراء النهر خاليا من عسكر[٤] .

هذه هى الاستعدادت التى استعد بها كلا الطرفين، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فكانت الغلبة للمغول، وذلك للتخطيط الدقيق الذى وضعه جنكيز خان لحصر العالم الإسلامى من الجهات الأربعة .

كان هجوم المغول بقيادة الجيش الأول على مدينة أترار، مفتاح أقاليم ما وراء النهر[٥]، ودان القتال عليها ليلا ونهارا، حتى أستولى عليها المغول، وأحضر ينال خان بين يدى جنكيز خان، وأمر بسبك الفضة وقلبها على أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا[٦].

---

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٦٥.
(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٩.
(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦.
(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٠، ٩١.
(٥) عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص ٥٩.
(٦) النسوى: المصدر السابق، ص ٩١.

وفى عام ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م، فتح بخارى وتم تخلايبها على يد المغول[١]، ثم اتجه جنكيز خان صوب سمرقند، وتم بها ما تم فى بخارى وذلك سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م[٢] .

ثم توالت الفتوحات المغولية فتم فتح بناكت وخجند وغيرها من المدن الإسلامية فى أقاليم ما وراء النهر[٣] حتى جاء الدور على إقليم خوارزم .

ذكرنا هذه المقدمة عن استعدادت الجانبين حتى يتبين لنا كيف تم الغزو المغولى ومن ثم الاستيلاء على المدن الإسلامية بهذه السرعة الرهيبة . على أن ما يهمنا فى هذا الحديث هو الغزو المغولى وأثره على الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم .

ثالثا: الغزو المغولى لإقليم خوارزم:

بعد أن قضى جنكيز خان على السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه[٤]، خلفه إبنه جلال الدين، وكان هدف جنكيز خان بعد القضاء على السلطان علاء الدين هو الاستيلاء على العاصمة الخوارزمية "الجرجانية"، والقبض على تركان خاتون أم السلطان محمد وسائر الأمراء الخوارزميين[٥] .

وعندما علمت تركان خاتون بوفاة ابنها السلطان علاء الدين محمد، هربت من خوارزم، واستصحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه وخرجت عن خوارزم، وأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الأسارى[٦].

وفى تلك الأثناء اختار جنكيز خان ابنيه جغتاى وأوكتاى للأستيلاء على إقليم خوارزم وجهزها بجيش كثيف كحوادث الزمان، فامتلأت بهم الجبال والوديان، وامر جوجى أن يمدهم من ناحية أخرى بجيش آخر[٧] .

أما إقليم خوارزم نفسه، فإنه بعد مغادرة " تركان خاتون " وحاشيتها له فقد خلا

---

(١) ابن الأثير: الكامل / مج ١٠، ص ٤٠٣، ٤٠٤.
(٢) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣١، المقريزى: السلوك: ، ج١، قسم١، ص ٢٠٥.
(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٥، ٣٥٦,
(٤) لمزيد من التفاصيل ارجع الفصل الأول، ٤٩، ٤٨.
(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٩، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ج١، ص١٢٣.
(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص٩٦، بارتولد: تركستان، ص٦٥.
(٧) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص١ ٣٠.

من الحكام الخوارزميين، وأى نوع من الإدارة، وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدى المغول، خصوصا وأن تركان خاتون فاتها أن تعين حاكما على الإقليم[١]. يقوم بضبط الأمور.

أصبح إقليم خوارزم خالى من السلاطين، وكان به من كبار قادة الجيش رجل يدعى خمار التركى وتخلف هناك أيضا عدد من أعيان الأمراء[٢]، منهم رجل يدعى "على كوه دروغان"، تولى أمر خوارزم، وسمى كواه دروغان لعظم أكاذيبه (ومعناه أكاذيب كالجبال)، وكان سيئ التدبير، وأستمر الحال على ذلك إلى أن رجع جلال الدين منكبرتى وأخويه أزلاغ شاه وأق شاه بعد وفاة السلطان علاء الدين محمد[٣].

وتم إعلان ولاية عهد جلال الدين وخلع أوزلاغ شاه، ولم يزعن أمراء الترك لهذا الأمر، وأعلنوا معارضتهم لجلال الدين وصمموا على سجنه أو قتله فخرج من خوارزم ومعه ثلاثمائة فارس، وأنزل هزيمة ببعض جنود المغول[٤]، وفر بعضها إلى خرسان، وبع دثلاثة أيام من فرار جلال الدين، رحل كل من أوزلاغ شاه وأوق شاه عن جرجانية خوارزم، وأسرع إلى خرسان[٥].

أما أوزلاغ شاه وأق شاه، فقد قتلهما المغول، أثناء عودتهما من خوارزم بعد جلال الدين، واستشهد من معهما، وعاد المغول برأسيهما[٦].

ذكرنا أن "تركان خاتون" تركت خوارزم، كما تركه جلال الدين وأخواه أزلاغ شاه وأوق شاه الذان أستشهدا .

وكان بخوارزم من العظماء وأفاضل الدهر ما لا يعد ولا يحصى، وكان عدد السكان به يزيد عن حبات الرمال والحصى عددا، وعينوا خمار التركى سيدا عليهم وهو أحد قواد الجيش ومن أقرباء تركان خاتون[٧].

ومن أجل حصار إقليم كبير كخوارزم، اضطر جنكيز خان إلى إرسال قوات أكبر

---

(١) عبد السلام فهمى: الدلة المغولية فى إيران، ص٦٥.
(٢) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص٣٠١.
(٣) النسوى: سيرة جلال الدين، ص١٢١، بارتولد: تركستان، ص٦٠٩.
(٤) راجع فى نفس الفصل، جلال الدين والمغول، ص١٧٤.
(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٨٠، عبد السلام فهمى: المصدر السابق، ص٦٦.
(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص١٣٠.
(٧) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص٣٠١.

مما أرسل إلى المدن الأخرى. فتقدم نحو خوارزم فى (ذى القعدة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، من ناحية الجنوب الشرقى قوات جغتاى وأوكتاى يصحبهما ألوف الجناح الأيمن بطريق بخارى، هذا بينما تقدمت من مدينة جند قوات جوجى من ناحية الشمال الشرقى[١].

وبعد أن أكتمل حصار العاصمة الجرجانية، أرسل جوجى رسالة لأهل المدينة يعدهم بالأمان إن استسلموا، إلا أن أهالى الجرجانية لم ينصاعوا، على الرغم من ان السلطان علاء الدين محمد كان قد كتب يدعوهم إلى مسالمة المغول والرفق بهم[٢]. وكان أهل البلد معروفون بالشجاعة، فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس، ودام الحصار خمسة أشهر[٣]، ونظرا لأنه لم يكن بخوارزم حجارة فكان جندى المغول يقتطعون كتلا من أشجار التوت التى تكثر فى هذه النواحى ويضعونها فى الماء حتى تتصلب وتقسو ويقذفون بها المدينة كالحجارة، وكعادتهم وكما هو مألوف لديهم فقد شغلوا الأهالى يوما بعد آخر بالوعد والوعيد والإيناس والتهديد وكانوا يتبادلون قذف بعض بالسهام أحيانا[٤]. فكلف المغول إلى الشباب من المدن المفتوحة، بردم خندق مياه المدينة فى عشرة أيام وتدمير قلاع المدينة، وأدخلت هذه العمليات الرعب فى قلوب خمار التركى، فخرج من المدينة وأعلن استسلامه[٥].

وكان لهذه الخيانة تأثير كبير فى عضد أهالى الجرجانية، ومع ذلك لم فإنهم لم يستسلموا للمغول[٦]. وشنوا هجوما على ثلاثة آلاف من الجند كانوا يرمون جسرا فى المدينة وقاتلوهم وقتلوهم عن أخرهم، وبعث هذا العمل روحا جديدة فى نفوس أهالى الجرجانية فازدادوا جلدا وصبرا على القتال[٧]. فأرسل المغول إلى ملكهم جنكيز خان يطلبون المد، فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعا، فملكوا طرفا منه، فأجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوه، فلم يقدروا على إزاحتهم عنه ولم يزالوا يقاتلوهم، والمغول يملكون منهم محلة بعد محلة، وكلما ملكوا

---

(١) بارتولد: تركستان، ص٦١١، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٦٣، ١٦٤، العرينى: المغول، ص١٣١.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٨١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٢١.

(٤) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٣٦٢.

(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٨١، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٣٦٢، ٣٦٣.

(٧) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص٣٠٣، ٣٠٤.

محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم، فكان الـرجال والنساء والصبيان، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا الإقليم جميعه، وقـتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه[١]، ثم فتحوا الجسـر الذى يمنع ماء حيحـون عن البلد، فدخله الماء فغـرق الإقليم جميعـة، وتهدمت الأبنية[٢].

وبقى موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتـه، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، وأما أهل خوارزم فـمن أختفى من المغول أغرقه الماء أو قتـله الهدم، فأصبح خرابا[٣].

نرى من كـلام ابن الأثر أن المغول قـتلوا جـميع أهالى خـوارزم، على أن المؤرخ الفارسى عبـاس إقبال يرى أن المغول تمكنوا من تسـوية المدينة بالأرض إلا ثلاث محلات اعتصم بـها من بقى من أهل خوارزم العاجـزين من السيف، وأرسل الفقيـه عالى الدين خيـاطى إلى جوجى، وطلب الأمـان لهم، ولم يقبل جـوجى هذا المطلب[٤]. وأصدر أوامره بترحـيل كل من بقى من الأهالى إلى الصحراء، واشتـغل الجيش بالنهب والسلب والإغارة وخربوا ما بقى من البيوت والمحلات[٥].

هكذا انتهى الغزو المغولى لإقليم خوارزم بالتدمير والخراب، على أن أثر هذا الغزو المغولى كان أعظم وأفظع، وسوف نتحدث عن هذا الأثر، بعد أن نتحدث عن دور جلال الدين منكبرتى وحروبه ضد المغول حتى لقى حتفه ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م.

رابعـا: جـلال الدين منكبـرتى وجـهـاده ضـد المغـول (٦١٧ - ٦٢٨هـ/ ١٢٢٠ - ١٢٣٠م):

عندما خـرج جلال الدين من خوارزم كان معـه ثلاثمائة فارس واستطـاع التصدى لبعض جنود المغول وكان عددهم سبعمائة مقاتل، حتى وصل إلى خراسان .

وعلى الرغم من هذا النصر الذى حققـه جلال الدين، إلا انه لم يتمكن من حشد قوات كافية فى خراسـان، لذا فبعد إقامة قصيرة فى العاصمـة نيسابور، مضى إلى مدينة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٢١: ٤٢٢، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٦١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٢٢، العرينى: المغول، ص١٣١.
(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٨١، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٣٦٣.
(٥) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٤.

زوزن بولاية قهستان[١]، ومنها إلى بست[٢]، منها إلى هراة[٣]، ثم إلى غزنة، فوصلها فى سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[٤]، وكان معه من سلم من عسكر أبيه وكانوا ستين ألف مقاتل[٥].

ولما فرغ المغول من خراسان، جهز جنكيز خان جيشا كثيفا قوامه أثنى عشر ألفا، وسيره إلى غزنة[٦]، فخرج إليهم جلال الدين إلى موضع يقال له "بلق"[٧] فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا، وبقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم أنزل الله نصره إلى المسلمين، فانهزم المغول، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلما أنهزم المغزل، أرسل جلال الدين رسولا إلى جنكيز خان قول له "فى أى موضع تريد أن يكون الحلاب حتى نأتى إليه[٨]؟" فجهز جنكيز خان عسكرا أكثر من أول مع بعض أولاده ووصلوا إلى كابل[٩]، وألتقى الجمعان، فانهزم المغول للمرة الثانية، وقتل المسلمون فيهم وغنموا شيئا كثيرا[١٠]، فكان مع المغول من أسرى المسلمين خلق عظيم، فخلصوا من الأسر[١١].

وساد الفرح مل البلاد نتيجة لهذا النصر الذى حققه المسلمون. وبعد أن بلغت أنباء هذا النصر خراسان وجنوب ما وراء النهر، ثار الأهالى على العديد من مدنها وقتلوا رؤساء الشرطة المغول فيها. وكان من أوائل نتائج هذا النصر أن فك المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة ولخ بطخارستان الحصار ولاذوا بالفرار[١٢].

---

(١) راجع الفصل الأول، ص٤٩ - ٥١.

(٢) بست: بالضم، مدينة بين سجستان وغرنين وهراة من أعمال كابل. ياقوت: البلدان، مج١، ص٣٢٨، ج٢.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٨٥: ٨٦.

(٤) فاكبرى: تاريخ بخارى، ص١٧٨.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٦١.

(٦) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، مج٣، ص١٢٨.

(٧) بلق: بالفتح، ثم السكون، وقاف: ناحية بغزنة من أرض زابلستان. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج١، ج٢، ص٣٨٥، وذكر هذا الموضوع بيروان السنوى: سيرة جلال الدين، ص١٥٤، بروان، عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٩٥.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج١، ٤٢٢.

(٩) كابل: ولاية كبيرة بين الهند وغزته، ياقوت: البلدان، مج٤، ج٧، ص١١١.

(١٠) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ١٣٨.

(١١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٦٢.

(١٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص٩٦، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٣٧٢، بارتولد: تركستان، ص٦٢٢.

ثم جرت بين المسلمين فتنة لأجل قسمة الغنائم، وسبب ذلك أن أمير منهم يقال له: سيف الدين بغراق - أصله من الترك، وكان شجاعا ذا رأى فى الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع المغول بنفسه، وهو الذى هزم المغول فى الحقيقة[١]، ووقع بينه وبين أمير آخر يقال له ملك خان بينه وبين جلال الدين نسب، فاختلف هذان الأميران فى الغنيمة، فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق[٢]، فقال بغراق "أنا أهزم الكفار ويقتل اخى لأجل هذا السحت"[٣]، فغضب وفارق العسكر وسار الهند، فتبعه من العشكر ثلاثون الفا كلهم يريدونه[٤]، فاستعطفه جلال الدين بكل الطرق، وسار بنفسه إليه، وذكره الجهاد، وخوفه من الله نعالى، وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا، فانكسر المسلمون وضعفوا[٥]. فضعف بذلك جلال الدين، ثم وصل جنكيز خان بنفسه فى جيوشه، فلم يكن لجلال الدين به قدرة بعد مسير بغراق جيشه، فقصد جلال الدين الهند، وتبعه جنكيز خان حتى أدركه على نهر السند[٦]، فألتقى الجيشان فى شوال من سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م، وحمل على القلب فمزقهم فولى جنكيز خان منهزما، لكن كان له كمين عشرة آلاف فارس فخرجوا على ميمنة جلال الدين وعليها أمير ملك، فانكسرت وأسر ابن جلال الدين وتبدد نظامه[٧].

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرا، رأى والدته، وأم ولده وجماعة من حرمة يصحن بأعلى صوتهن: بالله عليك أقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب[٨]. وأصدر جنكيز خان أمرا بالقبض على جلال الدين حيا ولذلك لم يبالغ الجيش المغولى بالحرب والسهام امتثالا لأمر جنكيز خان إلا أن جلال الدين، انسحب من مواجهتهم، واحضروا له جوادا جديدا، فلما امتطى صهوته، هاجم مرة ثانية، ثم ارتد سريعا، وألقى بنفسه فى النهر كالبرق الخاطف[٩]، حتى وصل إلى الساحل، ولما شاهد ذلك جنكيز خان وضع يده على فمه

(١) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ٤٢٢.
(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٢٨.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٤٢٢.
(٤) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ١٣٨.
(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٤٢٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٦٢.
(٦) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، مج٣، ص١٢٨.
(٧) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٢٦.
(٨) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٥٩.
(٩) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣١٠.

متعجبا والتفت إلى ولديه، جغتاى وأوكتاى - وقال لهما "من أب مثل هذا الابن ينبغى أن يولد" : إذا نجا من هذه الوقعة فوقائع كثيرة تجرى على يديه، ولأن جلال الدين ألقى جميع ما كان معه من النفائس وانية الذهب والفضة فى النهر، أمر جنكيز خان الغواصين فاخرجوا منها ما أمكن[١]، وعبر جلال الدين النهر إلى جهة الهند، وعاد جنكيز خان فاستولى على غزنةقتلا ونهبا[٢].

كان فى هذه الفترة غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش، أخو جلال الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى وأصبهان وغير ذلك[٣]، وعندما توجه جلال الدين إلى بلاد الهند ملك غياث الدين بلاد كرمان، وكان مع غياث الدين فى خمته خاله إيغان طايسى، وهو اكبر أمير معه، لا يصدر غياث الدين إلا عن رأية والحكم إليه فى جميع المملكة[٤]، فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه[٥]، فأقتتل غياث الدين مع خاله إيغان طايسى ومن معه فانهزم إيغان طايسى، وأقام غياث الدين فى بلاده مؤيدا منصورا[٦]. وفى أول سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، سار غياث الدين إلى مدينة شيزار، وهى كرسى مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها، وبقى غياث الدين بها، واستولى على أكثر البلاد، وأقام غياث الدين بشيزار وزاد إقامة وعزما على ذلك لما سمع أن المغول قد عادوا إلى الرى والبلاد التركية وخربوها[٧].

وفى نفس السنة خرج جلال الدين من بلاد الهند حتى وصل إلى كرمان فى أربعة آلاف فارس فيهم ركاب أبقار وحمير[٨]، وحين سمع غياث الدين نبأ مجئ أخيه، خرج ومعه ثلاثون آلاف فارس لصده، إلا أن جلال الدين منع أخاه من الحرب بإرسال سفير اليه، فعاد غياث الدين إلى الرى وأنصاع معظم قواد الجيش لأمر جلال الدين[٩]، ووصل فى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م إلى أصفهان فملكها، واستولى على عراق العجم، ثم

(١) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص٢٢٦.
(٢) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ١٣٩.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج١٠، ص ٤٣٦.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل، مج١، ص ٤٣٦.
(٦) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٣٣.
(٧) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٤٠.
(٨) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتى، ص ١٤٧.
(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٤٢.

سار إلى بلاد فارس فاستعاد ما أخذه أخوه غياث الدين، ثم سار إلى خوزستان، وكانت بيد الخليفة الناصر، فوصل مدينة تستر فحاصرها، وتفرق عسكر جلال الدين ينهبون حتى وصلوا إلى بادرايا وغيرها من أعمال بغداد[١]، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فسار إليهم وإلى البصرة وهويلتكين من قبل الخليفة، فأوقع بهم وقتل منهم جماعة، ودام حصار جلال الدين لمدينة تستر شهرين ثم رحل عنهم بغتة[٢]، فلما رحل جلال الدين لم يقدر على منعه فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، وهى قرية مشهورة بطرق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، وأما عسكر جلال الدين فنهبوا البلاد وأهله[٣]. وسار من بعقوبا إلى دقوقا[٤]، فبذل فيهم السيف، وعزم على أخذ بغداد[٥]، فاختبط الناس وانزعج الناصر لدين الله، وكان مريضا، فنصب المجانيق وحصنت الأسوار، وأنفق الناصر فى العساكر ألف دينار[٦].

لما جرى على أهل دقوقا الخراب، خاف أهل البوازيج[٧] من جلال الدين، وهى لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فطلبوا الأمان من جلال الدين وسير إليهم من يحميهم، وذكر أن الشخص الذى سيره لحمايتهم هو أحد أولاد جنكيز خان ملب المغول، كان قد أسره جلال الدين فى بعض حروبه، ثم أكرمه فصار من أصحابه فحمى أهل البوازيج، وأقام جلال الدين مكانة إلى آخر ربيع الآخر من هذه السنة[٨]، والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل، فاصطلحوا فسار جلال الدين إلى آذربيجان فملكها[٩].

---

(١) ابن واصل: تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩ تاريخ، ميكروفيلم ٤٩٧١٣، ورقة ٢٢٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٤٤، فاروق عمر: تاريخ إيران، بالاشتراك مع د. مرتضى حسن النقيب، بغداد، ١٩٨٩م، ص١٨٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٤٤.

(٤) دقوقا: بفتح أوله وضم ثانية وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة. مدينة بين أربل وبغداد: ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ج٤، ص٣٠٣.

(٥) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص٩٦.

(٦) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٣٠.

(٧) البوازيج: بعد الزاى ياء ساكنة وجيم. بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة، يقال لها بوازيج الملك وهى من أعمال الموصل، ياقوت الحموى: معجم اليلدان، مج١، ج٢، ص٣٩٦.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٣.

(٩) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٤٥.

وفى نفس السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله، وبويع ابنه الخليفة الظاهر بأمر الله[١]. وفى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، استولى جلال الدين منكبرتى على مدينة تفليس[٢] وهى منى أحسن البلاد وأحصنها وأمنعها[٣].

ففى نفس العام توفى الخليفة الظاهر وبويع لابنه الأكبر المنتصر بالله[٤].

هذه محاولات جلال الدين منكبرتى للسيطرة على البلاد الإسلامية ولم الشمل وذلك للمواجهة المرتقبة بينه وبين المغول، وذلك فى محاولة منه لتثبيت البيت الخوارزمى وإعادة الهيبة والهيمنة للدولة الخوارزمية .

ففى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، توفى جنكيز خان[٥]. وكان قبل وفاته قد عاد إلى بلاده سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وترك أقاليم الدولة الخوارزمية خاوية على عروشها، وانشغل المغول عن البلاد الإسلامية بأمور أصبحت تهدد كيانهم فى بلادهم الأصلية، لذلك نرى جنكيز خان فى الفترة الباقية من حياته، أى منذ عودته إلى بلاده حتى توفى سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م، يكرس جهوده لضرب القبائل الثائرة عليه[٦]. ويحاول إخضاع ما يستطيع إخضاعه من إمبراطورية سونج Sung فى النصف الجنوبى من بلاد الصين، غير أنه توفى قبل أن يرى ثمرة انتصار قواده هناك[٧].

وفى نفس السنة التى توفى فيها جنكيز خان، خرجت طائفة عظيمة من المغول، عازمين على بلاد الإسلام، فسار إليهم جلال الدين وحاربهم، واشتد القتال بينهم، فأنهزم المغول، وتبعهم جلال الدين عدة أيام يقتل ويأسر، بينما هو كذلك، أقام بنواحى الرى خوفا من جمع آخر للمغول إذ آتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون إليه، فأقام

---

(١) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص٦٢٢.

(٢) تفليس: بفتح أوله ويكسر. بلد بأرمينية الأولى والعبض يقول بأران وهى قصبة ناحيةجرزان قرب باب الأبواب وهى مدينة قديمة أزلية. . . وتفليس مدينة لا إسلام وراءها يجرى فى وسطها نهر يقال له "الكر" يصب فى البحر وعليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحر. ياقوت: معجم البلدان، مج١، ج٢، ص٤٤٨.

(٣) ابن واصل: تاريخ الواصلين، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩، تاريخ، ميكروفيلم ٤٩٧١٣، ورقة ٢٣٧.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٥٤٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٧، ج١٣، ص١٣٧ - ١٤١.

(٦) Lamp: Genghis - Khan, the Emperor, if, All Men, P. 192.

(٧) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٢١.

ينتظرهم[١]. وفى هذه السنة أيضا كان السلطان جلال الدين خوارزمشاه قد ملك بلاد أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرهم[٢].

وفى سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م، عاود المغول الخروج إلى بلاد الإسلام، وجرت بينهم وبين جلال الدين خوارزمشاه حروب كثيرة، ظفر المغول فى أكثرها[٣]، ثم بعد ذلك هزمهم هزيمة منكرة، وقتل منهم خلقا وأمما لا يحصون[٤]. وقد ذكر فى حديث هذه الحروب أن المغول الذين قصدوا بلاد الإسلام فى هذه السنة، لم يكن قصدهم لها بأمر الخان[٥]، وإنما هؤلاء المغول قد سخط ملكهم الخان على مقدمهم، وأبعده عنه وأخرجه من بلاده، فقصد بلاد خراسان، فرآها خرابا، فقصدوا الرى ليتغلب عليها وعلى غيرها من عراق العجم، فلقيه جلال الدين خوارزمشاه، فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم جلال الدين[٦].

ثم عاود القتال، فانهزم ثانيا[٧]، وقصد أصفهان واقام بينها وبين الرى، وجمع عساكره، ومن طاعته[٨]، وحشد جلال الدين قواته لقتال المغول، فأسند قيادة ميمنة الجيش لأخيه غياث الدين وأتخذ هو موقع القلب. ولكن لم تكد الحرب تبدأ حتى أخذ أخوه غياث الدين وأحد أمراء السلطان ويدعى "جهان بهلوان إيلجى" عددا من جيشه وولوا الأدبار[٩] وقصدوا جهة ساروا إليها، فما رآهم المغول قد فارقوا المعسكر ظنوا انهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم المغول لهذا الظن، وتبعهم صاحب بلاد فارس، وأما جلال الدين، فإنه لما رأى مفارقة أخيه إياه، ظن أن المغول رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزما[١٠]، ولم يرد دخول أصفهان لءلا يحصروه، فمضى إلى سُميرم[١١]، وأما صاحب فارس فلما أبعد فى أثر المغول، ولم ير

(١) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٧٣.
(٢) ابن واصل: المخطوطة السابقة، ورقة ٢٤٥.
(٣) ابن الوردى: تاريخ، ج٢، ١٤٧.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٧، ج١٣، ص ١٤٢.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٢.
(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، مج١٠، ص ٤٧٦، ٤٧٧.
(٧) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٣٨.
(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٢.
(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٥٠.
(١٠) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٧٧.
(١١) سميرم: بلده بين أصبهان وشيراز فى نصف الطريق، وهى آخر حدود أصبهان: ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٣، ج٥، ص٧٤.

جلال الدين خاف المغـول فعاد عنهم، وأما المغول، فلمـا لم يروا أحدا فى آثارهم عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان، فحصروها[١].

وعلق الذهبى على ذلك فيقول "فانهزم الجمعان من غير قتال"[٢].

وخفى خبر السلطان عن أهل أصفهـان ثمانية أيام فلم يدر أحد، فينتظر عوده، أم لا فينتظر الأمـر ممن يقوم به بعده، وكان المصـاف فى ٢٢ رمضان ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م، فلما خرج الناس يوم العيد إلى المصلـى، وصل السلطان جلال الدين وحضر الصلاة[٣]، ففرحـوا به، ووعدوه بالنصر والخـروج إلى عدوه، فكان شجاعـة عظيمة، فسـار إليهم وأجتمع بهم، وخرج أهل أصـفهان معه[٤]، فقاتلو المغول، فانهـزم المغول أقبح هزيمة، وساق جلال الدين وراءهم، إلى الرى قـتلا وأسرا[٥]، فلما بعدوا عـن الرى، أقام بها، وجاء إليـه رسول ابن جنكيـز خان يقول له "أن هؤلاء ليـسوا من أصحـابنا، وإنما نحن أبعـدناهم عـنا" فلمـا أمن جـلال الديـن من جـهـة ابن جنكيـز خـان عـاد إلى بلاد أذربيجان[٦].

وفى أوائل شوال من سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، حاصر جلال الدين مدينة خلاط[٧]، وقاتله أهل البلد قتالا شديدا، أسرفوا فى شتمه على الأسوار[٨].

وفى ٢٨ جـمـادى الأولى سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م[٩]، فـتح له باب المدينة بعض الأمراء فـدخل جلال الدين بعـسكره وملكها، ووضع السـيف فى أهلها، فـقتل كل من

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ص٢٣٢.

(٢) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٣٨.

(٣) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتى، ص ٢٣٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٧٧.

(٥) الذهبى: المصدر السابق، ج٢، ص١٣٨.

(٦) ابن واصل: المصدر السابق، ص٢٣٣.

(٧) خلاط: بكسـر أوله وأخره، بلد عامرة مـشهورة ذات خيـرات واسعة وثمار يانعـة، وهى قصبة أرمـينية الوسطى فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، وبردها فى الشتاء يضرب المثل ولها بحيرة ليس لها فى الدنيا نظير يجلب منها السمك المعروف بالطريخ إلى سائر البلاد، ومن عجائب الدنيا بحيرة خلاط فإنها عشرة أشهر لا يكون فـيها ضفدع ولا سرطان ولا سـمكة ثم يظهر السمك مدة شـهرين فى كل سنة. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ج٣، ص٢٤١.

(٨) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٨٤، الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٣٩.

(٩) ذكر النسوى أن السلطان جلال الدين ملك خـلاط فى أواخر سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. انظر النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٢٠ - ٣٢٤.

وجد بالبلد، ومن سلم هرب من البلاد، وسبوا الحريم، واسترقوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزقوا كل ممزق، وتفرقوا فى البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله[١] .

بعد سقوط خلاط، وكانت للملك الأشراف موسى[٢]، فعرض إقامة حلف قوى مع علاء الدين كيقباذ بن خسرو بن قلج أرسلان السلجوقى[٣] صاحب بلاد الروم[٤]، وسبب ذلك أن جلال الدين قد أطاعه صاحب أرزن الروم[٥]، وهو ابن عم علاء الدين كيقباذ، وبينه وبين علاء الدين هذا عداوة مستحكمة، وكان صاحب أرزن الروم قد أعان جلال الدين على حصار مدينة خلاط، فخافهما علاء الدين كيقباذ، فأرسل إلى الملك الكامل[٦]، فأحضر الملك الكامل. أخاه الأشرف من دمشق، فحضر الأشرف، وسار إلى علاء الدين كيقباذ، ثم سار نحو خلاط، فسمع جلال الدين بهما، فسار إليهما، فوصل إلى مكان يعرف بباسى حمار، وهو من أعمال أرزنجان[٧]، فالتقوا هناك، وكان من علاء الدين كيقباذ عشرين ألف فارس، وكان مع الأشراف نحو خمسة آلاف كلهم من العسكر الشجعان، وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له: عز الدين عمر بن على وهو من الشهامة فى الدرجة العليا[٨].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٩٥ وما بعدها.

(٢) الملك الأشرف: هو الأشرف موسى بن العادل أبى بكر أيوب، صاحب دمشق، ومدة ملكه ثمان سنين وأشهر، توفى يوم الخميس الرابع من محرم ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، راجع المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، القسم الأول، ص٢٥٦.

(٣) علاء الدين كيقياذ: صاحب بلاد الروم السلطان علاء الدين كيقياذ بن كيخسروبن قلج أرسلان السلجوقى، كان ملكا جليلا شهما شجاعا وافر العقل متسع الممالك تزوج بابنه الملك العادل وامتدت أيامه وتوفى فى سابع شوال سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م. راجع ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٥، ص١٦٨.

(٤) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٤٦.

(٥) أرزن الروم: مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط، قديمة البناء، القزوينى: آثار البلاد، ص٤٩٤.

(٦) الملك الكامل: هو ناصر الدين أبو المعالى بن محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، ولد ٧٦هـ/ ١١٨٠م، وتملك الديار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة وبعده عشرين سنة وتملك دمشق قبل موته بشهرين، وكان صحيح الإسلام معظما للسنة وأهلها محبا لمجاسة العلماء وتوفى ٦٣٥هـ/١٢٣٨م. راجع ابن كثير: البداية والنهاية، مج٧، ج١٣، ص١٧١، ١٧٢، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص١٧٢.

(٧) أرزنجان: بالفتح ثم السكون وفتح الزاى وسكون النون وجيم وألف ونون، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف. وهى بلد طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن وفيها مسلمون وهم أعيان أهلها. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج١، ج١، ص١٢٥.

(٨) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٨٦، ٤٨٧، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٥ وما بعدها.

وقبل بدء القتال، سقط جلال الدين مريضا، لذا فإنه لم يتمكن من تنفيذ خطته قبل اجتماع شمل جيش الأعداء، كما أن عددا من الجنود فى جيشه عادوا إلى بلادهم، بينما احتشد أعداؤه من كل صوب وتحالفوا لصد الخوارزميين[١].

على أية حال، خرج جلال الدين من خلاط للقائهم وكان فى أربعين آلفا والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فى يوم الجمعة، وكان الغلبة فيه للملك الأشرف علاء الدين وباتوا ليلة السبت على تعبيتهم إلى الفجر من يوم السبت فالتقوا واقتتلوا فانهزم جلال الدين وقتل من أصحابه خلق لا يحصى عددهم إلا الله وأنهزم مثلهم وأسر مثلهم[٢]، ومضى منهزما مع عساكره، وعادوا إلى أذربيجان، فنزلوا عند مدينة خوى[٣]، ولم يكونوا قد استولوا على شىء من أعمال خلاط[٤] سوى خلاط، ووصل الملك الأشرف إلى خلاط فملكها[٥] .

أما صاحب أرزن الروم، فقد أخذ أسيرا، بعد أن أحاطوا به، فقاتل عن نفسه أشد قتال، وأمر بتقييده وحمل على بغل[٦]، فأحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه، فأخذه وقصد أرزن الروم، فسلمها صاحبها إليه، هى وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها[٧].

وعندما ملك الملك الأشراف مدينة خلاط استلم علاء الدين كيقباذ أرزن الروم من صاحبها، وعاد جلال الدين إلى أذربيجان، وأقام بها حتى هجوم المغول عليه[٨].

ثم وقعت المراسلة والملاطفة بين الملك الأشرف وعلاء الدين كيقباذ وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على ما بأيديهم وظان لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر[٩].

---

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٥٩ .

(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٢٤٦ .

(٣) خوى: مدينة معمورة من مدن أذربيجان، ذات سور حصين ومياه وأشجار، كثيرة الأهل، وأهلها أهل السنة والجماعات على مذهب واحد، ليس بينهم اختلاف لمذاهب، ينسب إليها كثير من العلماء. راجع القزوينى: آثار البلاد، ص٥٢٧ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٨٧ .

(٥) المقزيزى: السلوك، ج١، قسم١، ص٢٤٠ .

(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٢٤٠ .

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق، مج١٠، ص ٤٨٧ .

(٨) ذكر النسوى مراسلة الأشرف للسلطان فى أمر الصلح، راجع النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٩) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ص١٤٦ .

أما عن السبب الرئيسى الذى دفع الأشرف وعلاء الدين إلى عقد الصلح مع جلال الدين، فهو أنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين فى فارس، فخشوا أن يستولى المغول على أملاك الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بعد ذلك الخطر المغولى الذى بات يهدد كيانه وكيانهم(١).

أما جلال الدين فنجده يوافق على الصلح، فى محاولة منه لجمع شمل العالم الإسلامى أمام الخطر الأكبر ألا وهو الخطر المغولى.

وفى أول سنه ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وصل المغول من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، وذلك أن أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحده(٢)، إلى المغول يعرفهم ضعف جلال الدين، ويحثهم على قصده، عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به(٣)، فقصدت طائفة منهم بلاده، واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد(٤)، ثم قصدوا أذربيجان، فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر على منعهم عن البلاد، قد ملئ رعبا وخوفا، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر(٥)، وكان السبب أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة مفرطة يقال له قلج، وكان خصيا(٦)، واتفق موت ذلك المملوك فحزن عليه حزنا شديدا(٧)، وأمر الأمراء أن يمشوا بجنازته عدة فراسخ، وأمر أهل البلدان أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه، فتوانى بعضهم فى ذلك، فهم بقتلهم، حتى تشفع فيهم بعض الأمراء، ثم لم يسمح بدفن قلج(٨)، بل ظل يرافقه فى

---

(١) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢١٤: ٢١٥.

Howorth : History of The Mongols, P. 130.

(٢) الإسماعيلية الملاحدة: نسبة إلى إسماعيل بن جعفر، ومن مذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، ولهم دعوة فى كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان، وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهرا باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، ولهم ألقاب كثيرة على لسان قوم قوم. فبالعراق يسمون: الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وبخراسان: التعليمية والملاحدة. وهم يقولون نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم، وهذا الشخص راجع الشهرستانى: الملل والنحل، ج١، ص١٩١ - ١٩٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣١٧، ٣١٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩١.

(٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٤، ص٣١٨.

(٧) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٤٧.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، مج١٣، ص ١٤٩.

كل مكان ويبكيه ويربت على رأسه ووجهه، وقد امتنع عن الطعام والشراب[1]، وكان يرسل الغلام بعضا مما كانوا يأتون به من طعام وشراب[2]، ولا يستطيع أحد يقول أنه مات، فانه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل له ذلك، فكانوا يجلبون إليه الطعام ويعودون، يقولون: أنه يقبل الأرض، ويقول أننى أصلح مما كنت، فحلق أمراءه من الغيظ من هذه الحالة[3]، ففارقوه وانحازوا عنه مع وزيره، وأنه بقى حيران لا يدرى ما يصنع لاسيما عندما خرج المغول عليه، فحينئذ دفن الغلام، وراسل الوزير، واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه بقى أياما، ثم قتله جلال الدين[4].

على أية حال، نجحت طائفة من المغول فى الاستيلاء على الرى وهمذان - كما ذكرنا - ورحل السلطان جلال الدين من تبريز[5] إلى موقان[6]، بعد أن يئس من معونة الخليفة وعلاء الدين كيقباذ والسلطان الأيوبى لدفع المغول، كى يجمع من تفرق من جنوده الذين يقضون الشتاء فى موقان[7]، وعندما علم بمسير المغول إليه، اضطر إلى العودة ثانية إلى أذربيجان، فأقام بماهان[8]، وهى فضاء كثيرة الوحش من أنواع الصيد فشتا بها[9]. فلما أنقضى الشتاء أخبر عز الدين صاحب قلعة شاهق بأن المغول قد ركبوا من أوجان[10] لقصده، وأنهم تحققوا الآن أن السلطان بماهان، وأشار عليه بالعودة إلى

---

(١) ابن كثير: نفسه، ج٧، مج١٣، ص ١٤٩.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٩٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩١.

(٥) تبريز: بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنة وزاى، من أشهر مدن أذربيجان وهى مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص وفى وسطها عدة أنهار جارية والبساتين محيطة بها والفواكه بها رخيصة. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج١، ج٢، ص٤٣٠، ٤٣١.

(٦) موقان: بالضم ثم السكون والقاف وآخره نون، وأهله يسمونه موغان. ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم وهى باذربيجان يمر القاصد من أدربيل إلى تبريز فى الجبال ياقوت الحموى، مج٤، ج٨، ص٣٤١.

(٧) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٤٠٤.

(٨) ماهان: ذكرها ياقوت ماوان، وكان لقياس أن تقلب هاء فيقال: ماهان، ولكن شبهوه بما الهمزة فيه منقلبة عن ياء أو واو. وأصل الكلمة من أوى يأوى إذا التجأ ومأوى الإبل بكسر الواو نادر فهو الموضوع يؤدى إليه وأن المياه تكثر به، ياقوت الحموى، معجم البلدان، مج٤، ج٨، ص١٩٨، ١٩٩.

(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٥٦.

(١٠) أوجان: أحدى مدن أذربيجان. النسوى: جلال الدين، حاشية ٢، ص ٣٥٦.

أران[١]، إذا كان بها عساكر متحصنة بجبالها[٢]، وبها من التركمان من يساعده إلى الذهاب إلى بلاد الهند إذا حدثت الوقعة[٣].

وفى أران عمل شرف الملك وزير جلال الدين على تحصين القلاع وجمع الأموال وراسل كلا من علاء الدين كيقباذ والملك الأشرف ودعاهما للاستيلاء على أذربيجان وأران، ووصف جلال الدين فى مراسلاته بأنه رجل ظالم ومهزوم[٤]، فاجتمعت هذه المراسلات عند السلطان جلال الدين[٥]، فاستدعاه من أران وسجنه فى إحدى القلاع ثم قتله[٦]، وسمع جلال الدين أن المغول فى طريقهم إليه فرحل صوب كنجة[٧]، وفى كنجة قام بتأديب جماعة من أهلها كانوا أشياعا للمغول، وقتلوا بعضا من الرجال والعسكر الخوارزميين وأرسلوا برؤوسهم إلى المغول[٨].

وأقام السلطان بكنجة سبعة عشر يوما، واستنجد بالملك الأشرف موسى على المغول[٩]، وعندما رأى جلال الدين أن المغول عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فاروق كنجة إلى بلاد خلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له: ما جئنا للحرب، ولا للأذى: إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم[١٠].

ولما تمكن المغول من بلاد أذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر[١١] والجزيرة،

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون، اسم أعجمى لولاية واسعة بلاد كثيرة فيها جنزه وهى التى تسنها العامة كنجه وبردعة وشمكور وبيلقان، وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس كلما جاوه من ناحية المغرب والشمال فهو من أران، وكان من جهة المشرق فهو من أذربيجان. ياقوت الحموى: البلدان، مج١، ج٢، ص١١٤، ١١٥، لمزيد من التفاصيل عن أران. الإدريسى: نزهة المشتاق، مج٢، ص٨٢٠ وما بعدها.

(٢) النسوى: سيرة جلال، ص ٣٥٦.

(٣) النسوى: نفسه، ص ٣٥٧.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٦٣.

(٥) النسوى: المصدر السابق، ص ٣٥٧.

(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٦٣.

(٧) كنجه: بالفتح ثم السكون وجيم، مدينة عظيمة وهى قصبه بلاد أران، وأهل الأدب يسمونها جنزه بالجيم والنون والرأى. وكنجه من نواحى الرستان بين خورستان وأصبهان، ياقوت الحموى: البلدان، مج٤، ج٧، ص١٤٥.

(٨) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٤٠٤.

(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٧٠.

(١٠) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩٢.

(١١) أبو الفدا: مج٢، ج٣، ص١٤٧.

على أن يقصد بعد ذلك الخليفة المستنصر بالله ملتجئا إليه، مستنجدا به[١]، وبملوك الطوائف ليساعدوه على المغول، ويخوفهم عاقبة أمرهم[٢]، وبلغة أن المغول يطلبونه، ومجدون فى أثره، فسار إلى ديار بكر (أمد)، وجعل اليزك[٣] فى عدة مواضع خوفا من المغول، فجاءت طائفة من المغول يقصدون أثره فوصلوا إليه على غير الطريق الذى فيه اليزك، فأزقعزا به بظاهر مدينة آمد[٤].

ثم ركب جلال الدين معه نفر يسير من أصحابه وولوا منهزمين، ونهب المغول العسكر، وقتلوا وظفروا به من العسكر، والباقون ولوا منهزمين يمينا وشمالا، وتمزقوا كل ممزق[٥]، وتمكن بذلك جلال الدين من الفرار مرة أخرى[٦]، واتجه إلى ميافارقين[٧] فسار إلى قرية من قراها، طالبا شهاب الذين غازى بن الملك العادل صاحب ميافارقين ثم لحقه المغول فى تلك القرية فهرب جلال الدين، إلى جبل هناك وبه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وأرادوا قتله[٨]، فقال جلال الدين لكبيرهم: إننى أنا السلطان فلا تستعجل فى أمرى، ولك الخيار فى إحضارى عند الملك المظفر شهاب الدين فيغنيك، أو إيصالى إلى بعض بلادى فتصير ملكا[٩]. فجعله الكردى عند امرأته ومضى إلى الجبل، فحضر كردى آخر معه حربة وقال للمرأة: لم لا تقتلون هذا الخوارزمى[١٠]؟ فقالت: لا سبيل إلى ذلك، وقد آمنه زوجى، وعرف هذا الكردى انه هو السلطان. ولكنه قال: كيف تصدقونه بأنه السلطان. وقد قتل لى بخلاط أخ خيرا منه. وضربه بالحربة فقتله[١١]، سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م[١٢].

---

(١) ابن واصل: فرج الكروب، ج٤، ص٣٢١.
(٢) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ١٥٠.
(٣) اليزك: ومعناه طلائع الجيش. راجع ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، حاشية٣، ص٣٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩٢.
(٥) ابن واصل: فرج الكروب، ج٤، ص٣٢١.
(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٦٣.
(٧) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانية ثم فاء وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أشهر مدينة بديار بكر، قالوا سميت بميابنت، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين لأنها أحسنت خندقها فسميت بذلك ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٤، ج٧، ص٣٤٩ وما بعدها.
(٨) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٥١.
(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٨١، ٣٨٢.
(١٠) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ١٥٣.
(١١) أبو الفدا: المصدر السابق، ص١٥١.
(١٢) النسوى: المصدر السابق، ص ٣٨٥، فاروق عمر: تاريخ إيران، ص٢٠٤، ٢٠٥.

وبذلك آلت حياة السلطان الشجاع إلى هذه النهاية المفجعة، وأرسل الملك المظفر صاحب آمد (ديار بكر) رجاله إلى الجبال التى لقى السلطان فيها مصرعه، فعثروا على جواده وسلاحه ورداءه، وكذلك على رفاته، وأمر الملك المظفر بدفنها[1].

وظل الناس نحو ٣٠ عاما بعد قتل جلال الدين يعتقدون أنه لا يزال حيا، لأنهم لم يحيطوا علما مؤكدا عن كيفية موته، ولم يشأ أحد أن يصدق موت هذا الرجل الشجاع، الذى قضى طوال حياته يكافح ضد المغول[2].

وتختلف رواية ابن الأثير عن النسوى فى حقيقة مقتل جلال الدين، فنرى أن ابن الأثير يقول[3]: "ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل، أو أختفى لم يظهر نفسه خوفا من المغول، أو فارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم".

خامسا: أثر الغزو المغولى على الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم:

تأثر إقليم خوارزم بالغزو المغولى، تأثرا سياسيا واقتصاديا وعلميا وفكريا.

أما عن الأثر السياسى والاقتصادى، فسياسيا: قد زالت الدولة الخوارزمية، وأنتقل الحكم فى خوارزم من الدولة الخوارزمية الإسلامية إلى الدولة المغولية.

أما عن الأثر الاقتصادى، فقد تم تخريب الإقليم كله، مما كان له أثر سلبى بعد الغزو مباشرة، إلا أن النشاط الاقتصادى، عاد ونشط عما كان عليه من قبل بعد فترة وجيزة من هذا الغزو.

أما الأثر العلمى والفكرى:

فقد كان إقليم خوارزم وعاصمته الجرجانية مركزا لرجال الدين والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من رجال العلم، وبغزو المغول لهذا الإقليم وتخريبهم معاهد ومراكز العلم وقتلهم للعلماء والشيوخ، والعفو عن بعضهم، وهجرة بعض العلماء والفقهاء مما كان له أكبر الأثر فى اندثار إنتاجهم العلمى فى إقليم خوارزم، مما أدى إلى تدهور العالم الإسلامى.

---

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٦٤.

(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٤٠٥. لمزيد من التفاصيل راجع ان العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص٢٤٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص ٤٩٤.

وسوف نعرض لهذا الأثر فى ثلاث نقاط:

١ - تخريب المعاهد والمراكز العلمية فى إقليم خوارزم .

٢ - قتل العلماء والعفو عن بعضهم وأسبابه .

٣ - موقف المغول من الأسرى .

١ - تخريب المعاهد والمراكز العلمية فى إقليم خوارزم

كان للغزو المغولى لإقليم خوارزم أهمية خاصة عن سائر الأقاليم الإسلامية، حيث كان من أهم أقاليم الدولة الخوارزمية، كما كانت عاصمته الجرجانية (كركانج)، قبيل الغزو المغولى، من أكثر المدن الإسلامية عمرانا[١]، كما كانت مقرا للسلاطين، ومجمعا للمشايخ والعلماء الكبار[٢].

ويشير ابن الأثير الذى عاصر هذه الحوادث، وكتب عنها، إلى ما تعرض له المسلمون فى إقليم خوارزم وغيره من الأقاليم الإسلامية من قتل وتخريب وسلب ونهب على يد المغول فيقول: لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمى لم تلدنى، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا، فنقول هذا الفعل، يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التى عقدت الأيام والليالى عم مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقربها ولا ما يداينها[٣].

وعندما جاء الغزو المغولى لإقليم خوارزم، وفتح المغول السد فى نهر جيحون فغرق الإقليم، وأمر جنكيز خان بهدم ما لم يصبه التخريب[٤]، فتهدمت الأبنية[٥] وأكثر

---

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٧، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص٦٦.

(٢) الجوينى: تاريخ جهان كشا، مج١، ص٣٠٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٩٩.

(٤) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص٤٢٢، عبد الفتاح مقلد الغنيمى، المسلمون فى آسيا الوسطى، ص١١٠.

ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين[1]، فتهدمت هذه المدن العلمية وتهدمت الدكاكين التى كانت معظمها أماكن للعلم وملتقى العلماء

كما خربوا القصور التى كانت أحد أهم الأماكن العلمية فى العصر الخوارزمى، هذه القصور التى شهدت من حاملى مشاعل العلم والأدب خلال العصرين السلوجوقى والخوارزمى (البيرونى ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) الزمخشرى ت(٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) ورشيد الدين الوطواط ت (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م)، وفخر الدين الرازى ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، والمطرزى ت(٦١٠هـ/ ١٢١٣م) وغيرهم من العلماء الأجلاء[2]، ولم يبق من هذه القصور سوى القصر العتيق «المعروف باسم كوشك أخجك[3]، كما خربوا المساجد وحرقوا المصاحف، وفعلوا مالم يسمع مثله فى تاريخ الإسلام ولا بعده[4].

كما قاموا بتدمير آلاف المجلدات من الكتب النفيسة وحرقوا المكتبات ودمروا المدارس ومعاهد العلم كافة، فلم يبق هناك كتاب يهتدى به[5]، وكانت مكتبة خوارزم من المكتبات الكبيرة المشهورة فى بلاد فارس، فهدمها المغول وأتلفوا ما كان فيها من الذخائر العلمية[6].

وكان فى خوارزم دار كتب، قد بناها شهاب الدين الخيوقى فى جامع الشافعية، ويقول النسوى «لم ير قبلها ولا بعدها مثلها[7]» ولما تواترت الأخبار بالغزو المغولى، وعزم شهاب الدين على مغادرة خوارزم إلى نسا[8]، شق عليه ترك كتبه، فأستصحب نفائسها[9]، وعندما قتل بيد المغول، وقعت هذه الكتب النفيسة فى أيدى العوام والسوقة، وقد بذل النسوى جهدا محمودا فى تتبعها وجمعها فظفر بعدة نفائس منها[10]. ولكنه

---

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ج٣، ص ٢٥٣.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٧٩.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢، بارتولد: تركستان، ص ٦١٥.

(٤) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص ١٢٧، ١٢٨، ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى ج٢، ص ١٣٨.

(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١١٦.

(٦) يحيى وهيب الجبورى: الكتاب فى الحضارة الإسلامية، ص ٣٠٨.

(٧) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١١٠.

(٨) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان وبينها وبين مرو خمسة أيام وبينها وبين أبيورد يوم وبينها وبين نيسابور ستة أيام أو سبع أيام. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٤، ج٨، ص ٣٨٥.

(٩) بارتولد: تركستان، ص ٦٠٧.

(١٠) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٠، ١١١.

بعد عـدة أعوام من ذلك أضطر إلى مغـادرة بلاده إلى غير عوده، فـترك جميع مـا كان يملكه بقصر أهله[١]، ويقول النسوى فى هذا الصدد «ولم أتحـسر مما خلفت بها إلا على الكتب»[٢].

وكما خرب المغول المساجد والمدارس والدور والقصور وخزائن الكتب، خربوا أيضا الزوايا والأربطة والقبور، ولم يبق سوى قبر السلطان تكش ت٥٩٦هـ/ ١١٩٩م[٣].

ويذكر ابن بطوطـة الذى زار إقليم خوارزم فى القرن الثـامن الهجـرى: إنه عندما زاره، رأى بخـارجـه زاويـة مـبنيـة على قـبـر الشـيخ الصـوفى نجم الـدين الكبـرى (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، كما شاهد قبر الإمام الزمخشرى ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م وعلية قبة[٤].

أما حـوانيت الوراقين فقد أصـابها ما أصاب غـيرها من معـاهد العلم، حيث أثر الغـزو المغولى علـى حوانيت الوراقـين، كـما أثر بشكـل مبـاشر علـى صناعة الوراقـة ونتاجهم[٥].

وقد عبر ياقوت الحمـوى عن هذا الأثر، عندما كان فى إقليم خوارزم، حيث كان يمارس تجـارة الكتب، وصادفـه وهو هناك خروج المغـول، فانهـزم بنفسـه، وخرج من الإقليم[٦].

وبذلك دمرت مـعاهد ومراكـز العلم فى إقليم خوارزم، مما أدى إلـى اندثار النفوذ الحضارى الإسلامى بإقليم خوارزم وما وراء النهر، وآسيا الوسطى.

٢ - موقف المغول من العلماء:

رأينا كيف تم الغزو المغولى لإقليم خوارزم، وما أعقبه من تخريب وتدمير للمعاهد العلمية، التى كانت أماكن للبـحث العلمى والتدريس، مما نتج عنه تخريب للإقليم كله، وخربوا المراكز العلمـية، خاصة الجرجـانية، التى كانت ملتقى العلمـاء من جميع البلدان والأقاليم، فجاءت جحافل المغول، وقتلت هؤلاء العلماء الأجلاء، كما قام المغول بالعفو

(١) بارتولد: المصدر السابق، ص ٦٠٧.
(٢) النسوى: المصدر السابق، ص ١١١.
(٣) بارتولد: المصدر السابق، ص ٦١٥.
(٤) الرحلة، ص ٦٠.
(٥) هالة شاكـر عبد الرحمن: الوراق والوراقـون فى العصر العبـاسى، رسالة ماجسـتير غير منشـورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ١١٩.
(٦) راجع: ابن القفطى: إنباه الرواة، ج٤، ص ٩٣.

عن بعضهم وألحقوهم بالخدمة فى بلاطهم وفر من فر من هؤلاء العلماء إلى البلاد والأقاليم المجاورة، مما حفظ بعضا من هذا النتاج العلمى الضخم، الذى أنتج خلال العصرين السلجوقى والخوارزمى.

أ - قتل العلماء وأسبابه:

بعد أن قام المغول بغرق خوارزم وتخريب الجوامع وغيره من معاهد العلم، قاموا بقتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد[1]. وكان ممن قتل من هؤلاء العلماء، الشيخ الفاضل العلامة شهاب الدين الخيوقى، وكان نائب السلطان علاء الدين محمد ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، فى جميع مملكته[2]، وكان قد تشاور معه فى أمر المغول، وكان رأى هذا العالم بأن يكتب السلطان إلى عماله على أطراف مملكته وأن يحشد الجند للدفاع عن ديار الإسلام وأن يمنع المغول من المرور بضفاف نهر سيحون، ولكن للأسف السلطان لم يأخذ برأيه[3]، فخرج شهاب الدين إلى نسا[4]، ومعه خلق كثير من أهل خوارزم[5]، واستصحب معه نفائس كتبه، من دار الكتب التى كان قد بناها فى جامع الشافعية[6]، وأقام بنسا[7] ينتظر تجدد الأخبار من جهة السلطان ليقصد خدمته، فورد الخبر بوروده بنيسابور ورحيله عنها، وتحير شهاب الدين فى أمره، إلى أن وصله بهاء الدين محمد بن سهل وهو أمير من أمراء نسا، وذكر أن السلطان لما ولى فارا من وجه المغول، تقدم إليه أن يمضى إلى نسا ويحذر الناس ويقول لهم: إن هذا العدو ليس كسائر العساكر، والرأى تخلية البلاد، والانسحاب إلى البرارى والجبال، حتى يفاجئوا المغول ويهزموهم[8].

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص ١٢٧.
(٢) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٢٩.
(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦.
(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١١١.
(٥) بارتولد: تركستان، ص ٦٠٧.
(٦) كان بمدينة نسا رباط بناه رئيسها عماد الدين حمزة النسوى ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، حسب رواية النسوى، ص ١١١، وهو رباط عظيم خارج المدينة ليس فى شىء من البلاد مثله فى عظم العمارة وكثر الخير، كما أمر بعمارة بناء عظيم للفقهاء والصوفية وغيرهم وكل له موضعه. راجع القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٦٥.
(٧) لما ملك السلطان علاء الدين محمد ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، مدينة نسا، كان قد خرب القلعة، وكانت كبيرة جدا، وتسع خلقا كثيرا، وليس أحد من أهل المدينة غنيا ولا فقيرا، إلا وله فيها دار، وبنيت فى وسطها دار للسلطة أعلى منها، والماء يجرى منها إلى تحتها. راجع النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتى، ص ١١٢.
(٨) النسوى: سيرة جلال الدين، ص١١١.

لما سمع شهاب الدين، وأهل خوارزم وغيرهم ما ذكره بهاء الدين عن لسان السلطان، اختاروا عمارة القلعة على الخلا والانسحاب، وشرع الوزير ظهير الدين مسعود ابن المثور الشاى فى عمارتها بالسخرة، فبنى عليها حائطا يشبه حيطان البساتين، وتحصن الناس بها، وأقام عندهم شهاب الدين الخيوقى، وجماعة من أهل خوارزم[١].

واتفق أن جنكيز خان جرد إلى خرسان صهره تفجار نوين[٢]، وأميرا من قواده اسمه يركانوين فى عشرة آلاف لنهبها وإحراقها[٣].

بعد أن تمكن المغول من نهب وسلب مدينة نسا، أحضر شهاب الدين الخيوقى وابنه السيد الفاضل تاج الدين بين يدى تفجار نوين وير كانوين مكتوفين، وأحضرت صناديق خزائنه ففرغوها هم وقوف إلى أن حال الذهب بينه وبينهما، فقتلا شهيدين[٤].

ومن رجال الدين الذين ذهبوا من خوارزم إلى «نسا» وقتلوا بيد المغول، المحدث مطهرا الدين النوزكاثى وكان حافظا لأسماء رجال الحديث عارفا بالحديث، وكان رجلا صالحا من رجال الدين[٥]، ومن علماء ورجال الدين الذين قتلوا فى خوارزم دفاعا عنه أيضا، الشيخ الصوفى نجم الدين الكبرى[٦]، وكان بخوارزم إلى أن قصده المغول فى ربيع الأول سنة٦١٨هـ/ ١٢٢١م، فخرج فيمن خرج لقتالهم مع جماعة من مريديه، وكانوا نحو ثمانين، فقاتلوا إلى أن استشهدوا جميعا على باب العاصمة، بعد أن قاتلوا معه، وجاهدوا فى سبيل الله، حتى أكرمهم الله بالشهادة[٧].

ومن رجال الدين الذين قتلوا دفاعا عن خوارزم، الإمام أبو نصر عبد الرحيم بن النفيس بن وهبان، وكان عارفا بالحديث ورجاله وعلومه عارفا بالأدب، قيما بالغة جدا،

---

(١) النسوى: نفسه، ص ١١٢.
(٢) نوين: معناه أمير. راجع القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٢٥.
(٣) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٢.
(٤) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٥.
(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٤، ج٨، ص ٤٠٧.
(٦) راجع الذهبى: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ١٨٨، السبكى: طبقات معينة الكبرى، ج٨، ص٢٥، ٢٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص ٧٩، ٨٠، حاجى خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص ٣٠٢١، إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين، مج١، ص ٩٠، الأدنة وى: طبقات المفسرين، ص ٢٢٠، ٢٢١، بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران، ص ٣٣٨.
(٧) الداودى: طبقات المفسرين، ج١، ص ٦٠ لمزيد من المعلومات، راجع الداودى: نفسه، ص ٥٨ - ٦٠.

خصوصا لغة الحديث، وكان مع ذلك فقيها مناظرا، مأمون الصحبة صحيح الخاطر مع دين متين، فقتله المغول فى إقليم خوارزم، ومات به شهيدا فى٦١٨هـ/ ١٢٢١م[١].

هكذا رأينا كيف قتل المغول العلماء ورجال الدين وأبناءهم وتلاميذهم ومريديهم أشد قتلة، كما قام المغول بقتل الأدباء والنحويين والشعراء وغيرهم من رجال الأدب منهم،القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى، وكان ممن برع فى علم الأدب، وفاق فى نظم الشعر والنثر[٢]، وكان مولده سنة ٥٥٥هـ/ ١١٥٩م، وتوفى مقتولا بيد المغول سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م[٣].

لقد كان من أثر الغزو المغولى لإقليم خوارزم وتخريب المعاهد والمراكز العلمية، وقتل العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء ورجال الطب ومختلف فروع المعرفة، أن صارت الحياة الفكرية راكدة، لم تأخذ بالتطور العلمى، وانحصر العمل الفكرى فقط على الفقه والتصوف والبدع[٤].

ب - هجرة بعض العلماء من إقليم خوارزم:

كان إقليم خوارزم، وخاصة عاصمته الجرجانية، ملتقى العلماء، وكان أيضا ملتقى تجار الكتب، وكان بخوارزم من العلماء التجار أثناء الغزو المغولى، المؤرخ الجغرافى ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[٥]، وكان معه من علماء خوارزم المطهر بن سديد النوزكاثى، وفى هذا العصر يقول ياقوت رأيته بخوارزم وخرج منه هاربا من المغول فى آخر سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م إلى ناحية نسا، وكان آخر العهد به وأظنه قتل بها قبل أن ينزل المغول على خوارزم بأكثر من عام فكأنه هرب إلى تعجيل شهادته[٦]. ويستمر ياقوت فى حديثه فيقول "ولقد اجتهدت به أن يقيم ربما نصطحب، فركن قليلا، ثم

---

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ج٣، ص ١٢٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص ٨٠ - ٨١، إسماعيل البغدادى: إيضاح المكنون، مج٢، ص ٥٩.

(٢) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج٤، ص ٥٨٢، راجع ياقوت الحموى: المصدر نفسه، ص ٥٨٢ - ٥٩٢.

(٣) القرشى الحنفى: الجواهر المضية فى طبقات الحنفية، ج٢، ص ٧٠٣، ٧٠٤، حاجى خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص ٩٢٢، ٩٩٣، إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين، مج١، ص ٢٢٨.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٨٠، ١٨١، عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى آسيا الوسطى، ص ١١٢.

(٥) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص ١٢١، ١٢٢.

(٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٤، ج٨، ص ٤٠٧.

قال، لا أستطيع المقام فإننى رجل جبان وتخيل إلى أن الكفار نزلوا على خوارزم، وقد وقع سهم فى أحد من المسلمين، وأنظر إلى الدماء تسيل على ثيابه وجسمه، فأموت قبل وقتى فخرج على غاية الاختلال فى أشد وقت من البرد وخلف أهلا وولدا ونعمة حسنة ودارا وضيعة فترك ذلك كله ومضى هاجا إلى شهادته رحمه الله"(١).

وخرج ياقوت من خوارزم، هاربا من غزو المغول، وقاسى فى طريقه الضائقة والتعب حتى وصل إلى الموصل(٢).

وعندما غادر ياقوت الحموى إقليم خوارزم، كان به من العلماء الإمام المعتزلى الحنفى الكبير، أبو يعقوب السكاكى(٣) على أنه خرج من خوارزم بعد خروج ياقوت وتوفى السكاكى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فى قرية الكندى بالقرب من مدينة ألمالغ، "ويذكرها الجغرافيون باسم ألمالق" من أعمال فرغانة"(٤).

ومن العلماء الذين هجروا أيضا بهاء الدين بن الحسين الخطيبى الصوفى، ت٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وكان من شعراء الصوفية، كما كان يرشد الناس صوفيا، وكان من المقربين للسطان علاء الدين محمد خوارز مشاه، وأستقر به المقام فى قونية(٥) بدعوة من سلطانها علاء الدين كيقباذ فظل بها حتى موته(٦).

هذا إلى جانب الصوفى نجم الدين الرازى ت٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، وقد رحل بعد الغزو المغولى إلى بلاد الروم، وهناك ألف كتابه المعروف باسم "مرصاد العباد من المبتدأ إلى المعاد" وهو كتاب باللغة الفارسية(٧).

هذه الهجرة لهؤلاء العلماء أدت إلى انتشار لغتهم الفارسية خارج بلادهم وحرمت بلادهم من نتاجهم العلمى والأدبى.

(١) ياقوت الحموى: نفسه، ص ٤٠٧.
(٢) ابن القفطى: إنباه الرواة، ج٤، ص ٨٣.
(٣) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج٥، ص ٦٤٨، ٦٤٧، القرشى الحنفى: الجواهر المضية، ج٣، ص ٦٢٢، ٦٢٣، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص ١٢٢.
(٤) القرشى الحنفى: الجواهر المضية، ص ٦٢٣، دائرة المعارف: المجلد ١٢، ص ١٢، لمزيد من المعلومات راجع: دائرة المعارف، مج١٢، ص ١٢، ١٣.
(٥) قونية: بالضم ثم السكون، ونون مكسورة، وياء مثناة من تحت حفيفة، من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها مدينة أقصرى، سكنى ملوكها. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٤، ج٧، ص ١٠٢.
(٦) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، حاشية ١، ص٥٧٨.
(٧) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هنداوى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص ٢١٥.

رأينا ما أحدثه الغزو المغولى من تخريب لإقليم خـوارزم بمعاهده ومراكزه العلمية، وكيف قتل المغول العلماء والزهاد والأدباء ورجال الأدب والشعر وفروع العلم سواء كانت النقلية أو العـقلية، وذهب بذهاب هؤلاء العلماء الفقـهاء، نتاجهم العلمى، أمـا العلماء الذى فروا، فكان نصيبهم أما الفـشل أيضا أو النجاة من القتل، ومن نجا منهم، كانت له يد بيضاء فى نشر العلم فى البلاد التى ذهب إليها.

وإلى جانب ما أحدثه المغول من قتلهم للعلماء، فقد قرروا العفو عن بعضهم.

ج - العفو عن بعض العلماء:

كان فخـر الدين الرازى ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م الشافعى المفـسر المتكلم[١]، قد اتصل بالسلطان علاء الدين محمـد خوارز مشاه وحظى لديه[٢] قد خلف ولدين الأكبـر منهما يلقب ضـياء الدين، وله اشـتغـال ونظر فى العلوم[٣]، وقد تجند فى حـياة أبيـه وخدم السلطان علاء الدين محمد خوارز مشاه[٤]،والآخر وهو الصغير لقبه شمس الدين، وله فطرة وذكاء خارق، وكان كثيرا ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء[٥].

وعندمـا توفى فخر الديـن الرازى وكان الوزير عـلاء الملك العلوى وزيرا للسلطان علاء الدين خوارز مشـاه قد تزوج ابنته[٦]، وكان علاء الملك هذا فاضـلا، متقنا العلوم والأدب والشعر بالعربية والفارسية[٧].

ولما حدث ما حـدث من الغزو المغولى، توجه علاء الدين هذا قاصـدا جنكيز خان ومعتصما به، فلما وصل إليه أكرمه وجعله عنده من خواصه[٨].

وكان جنكيز خـان يعفو عمن يعطيه ويسدى إليـه الخدمات[٩]، فطلب علاء الملك منه الأمان لأولاد فخر الدين الرازى، فأعطاه الأمان لهم جميعا[١٠].

(١) ابن القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩٠.
(٢) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص٢١.
(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج٣، ص ٣٨.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٧، ج١٣، ص ٦٧.
(٥) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام ووفـيات المشاهيـر والأعلام، مج ١٨٠، القسم الأول: وفـيات ٦٠١ - ٦١٠، ص ٣٣٧.
(٧) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٨) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٢٥، السيد الباز العرينى: المغول، ص ١٤١.
(١٠) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.

والجدير بالذكر أن المغول لم يدمروا ثلاث مناطق هى جنوب إيران وبلاد الروم والهند الغربية، حيث سد أمراؤها وسلاطينها الطريق على المغول إلى بلادهم بقبولهم دفع الخراج، فأصبحت هذه المناطق المراكز الرئيسية لانتشار اللغة الفارسية، وكان أمراؤها من كبار رعاة الأدب والشعر بهذه اللغة. لذا فقد صارت هذه المناطق ملاذا للفارين من مذابح المغول(١)، فحرموا بلاد فارس والعراق من نتاجهم العلمى، ولكن مما يذكر لهم أنهم نشروا اللغة الفارسية فى هذه البلاد(٢)، كما دخلت كثير من الألفاظ المغولية فى اللغة الفارسية(٣).

وعلى الرغم من هذا فإن علم التاريخ لم يتأثر كثيرا بهذا الغزو، فقد ألف محمد بن أحمد النسوى، ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، كتابا فى التاريخ «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى»، وكان معاصرا لأحداث الغزو المغولى، كما كان الكاتب الخاص لآخر سلاطين الدولة الخوارزمية جلال الدين منكبرتى، ولكنه كتبه بعد وفاة هذا السلطان سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م(٤).

كما ألف عطا ملك الجوينى (٦٢٣ - ٦٨١هـ/ ١٢٢٦ - ١٢٨٥م) كتاب «جهان كشا» وتحدث فيه عن الغزو المغولى لبلاد الإسلام، كما ظل فى خدمة المغول حتى توفى(٥).

ولقد شهد إقليم خوارزم فى العصرين السلجوقى والخوارزمى، قمة الحضارة والنضج الفكرى والثقافى والإسلامى العربى الفارسى والتركى، فأنجب لنا الكثير من العلماء فى مختلف فروع العلم، فانتشر بنتاجهم العلمى هذا الفكر الإسلامى، وجاء المغول ودمروا هذا المركز الحضارى بتخريبهم المعاهد والمراكز العلمية وحرقهم الكتب والمصاحف، وقتلهم للعلماء، فقضوا بذلك على رواد الحضارة ورجال العلم والفكر فى إقليم خوارزم.

---

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٣٥.
(٢) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٠٧.
(٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١٣٤.
(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، حاشية ٥، ص ١٧٠.
(٥) الجوينى: جهان كشا، مقدمة المترجم، ص ٤.

٣ - موقف المغول من الأسرى:

أ - موقف المغول من الأسرى من كبار رجال الدولة:

كان إقليم خوارزم خاضعا لإمرة تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وكانت قد غادرت خوارزم، عندما سمعت بالغزو المغولى للإقليم فسارت تركان خاتون بما معها من الحرم والخزائن، حتى وصلت قلعة إيلال وهى من أمهات قلاع مازندان، فأقامت بها(١).

وقام المغول بمحاصرة تلك القلعة فى أوائل سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، واستمر حصارا أربعة أشهر، وفى النهاية ونتيجة لنفاذ الماء، اضطرت تركان خاتون ووزيرا نظام الملك(٢) للاستسلام، فنزلا من القلعة، واستسلما مع كل مرافقيهما لجيش جنكيز خان(٣).

وأسرت تركان خاتون وحملت إلى جنكيز خان(٤)، ومعا نظام الملك وحريم وبنات خوارزم شاه وأولاده الصغار(٥).

كانت أخبار تركان خاتون تأتى جلال الدين... وكانت تقول «الأسر عند جنكيز خان وما أنا فيه من الذل والهوان أحب إلى من الرجوع إلى جلال الدين» وكانت تبغض جلال الدين بغضا شديدا(٦). ولما كان السلطان جلال الدين أيضا قد انهزم على ضفاف نهر السند، فقد أسر حريمه أيضا وأرسلهن مع حريم خوارزمشاه علاء الدين إلى قراقروم، وظلت تركان خاتون بتلك المدينة حتى وافتها المنية فى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ - ١٢٣٣م(٧).

---

(١) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٥، حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية، ص ١٦١.

(٢) نظام الملك: هو الوزير نظام الملك محمد بن صالح، وقد أمضى مدة سبع سنوات مستقلا بإدارة الوزارة، وعزله السلطان علاء الدين محمد، فتوجه إلى خوارزم، فجعلته تركان خاتون محل رعايتها، وأسندت إليه منصب الوزارة، وصارت أوامره نافذة فى خوارزم، فتضايق السلطان من هذا التصرف، ولم يشرف أحدا بهذا المنصب رغم وجود العديد من العظماء من أصحاب القلم وكبار أهل الفضل والكرم فى بلاطه، أمثال محمد النسوى صاحب «سيرة جلال الدين منكبرتى». راجع خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١٠، ٣١١.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، بارتولد: تركستان، ص ٦٠٨.

(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٦.

(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٤.

(٦) النسوى: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٧) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، راجع بارتولد: تركستان، ٦٠٩.

أما صغار أولاد السلطان فقتلوا جميعا[١]. وأما بناته، فقد تزوج بكل واحدة منهن، إلا «خان سلطان» التى كانت زوجة نصرة الدين عثمان صاحب سمرقند واصطفاها جوجى لنفسه[٢].

أما الوزير نظام الملك المعزول. فقد أقام بينهم مكرما مشفعا[٣]، حيث حمله الأمراء لجنكيز خان وقالوا له: «إن هذا الوزير كان مطرودا ومغضوبا عليه من قبل السلطان علاء الدين محمد»، وألحوا عليه أن يجعله بين رجاله وكان يكلفه أحيانا بتنظيم حسابات بعض الولايات[٤]، إلى أن أستولى جوجى على إقليم خوارزم ٦١٨هـ ١١٢١م، وحملت إلى جنكيز خان مغنيات السلطان، وفيهن بنت زنكيجة، وكانت ذات جمال وحسن، فطلبها، زين الكحال السمرقند، من جنكيز خان، وكان زين هذا قد داوى غين جنكيز خان من الرمد فوهبها له، وكان قبيح الصورة، فأبغضته، وأقامت عند نظام الملك يومين أو ثلاثة وهو يشرب، وجاءها الطلب من الكحال، فأبت، فأخبر زين جنكيز خان، فقال الوزير: أنا أحق بها من غيرى، فغضب جنكيز خان، فقتله[٥].

أما أوزلاغ شاه وأق شاه وجلال الدين منكبرتى، فقد ذكرنا ما حدث لهم من القتل، حيث كان جلال الدين منكبرتى ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، آخر سلاطين خوارزم الذين ذكرناهم.

وبقتل هؤلاء لم تقم قائمة للدولة الخوارزمية وحلت محلها الدولة المغولية، ليبدأ تاريخ جديد بهؤلاء البرابرة الذين خرجوا ليدمروا ويقتلوا ويسفكوا الدماء «وإنا لله وإنا إليه راجعون».

ب - موقف المغول من الأسرى «الأهالى والحرفيين والصناع»:

استولى المغول على إقليم خوارزم، حيا حيا، وبيتا بيتا، وهدموا وقتلوا جميع الخلق بها حتى تمكنوا من الاستيلاء على الإقليم[٦]، عدا ثلاثة أحياء لاذ بها من تبقى من

---

(١) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٧.
(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، ٨٤، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٥.
(٣) النسوى: المصدر السابق، ص ٩٧.
(٤) خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١١.
(٥) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٧، ٩٨، خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١١.
(٦) عطا ملك الجوينى: تاريخ جهان كشا، مج١، ص ٣٠٤.

الأهالى[١]، وأرسلوا حين أعيتهم الجبال، وضاقت بهم السبل، إلى الفقيه الفاضل على الدين الخياطى محتسب[٢] خوارزم، وكان السلطان علاء الدين محمد يحترمه لفضيلته فى العلم والعمل[٣]، وذلك لطلب الأمان، ولم يقبل جوجى هذا المطلب بدعوى أن أوان ذلك قد فات[٤].

أمر جوجى باحترام عالى الدين الخياطى، وأن ينصب له خيمة من خيامه، فلما حضر ذكر فى جملة ما قاله: إننا قد شاهدنا من هيبة الخان فقد آن أن نشاهد من زحمته، فاستشاط جوجى غضبا، وقال: ماذا رأوه من هيبتى وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال، فأنا الذى شاهدت هيبتهم وها أنا الآن أريهم هيبتى[٥]، وأمر بترحيل كل من بقى من الأهالى إلى الصحراء، وفصلوا عنهم ما يزيد من مائة ألف كانوا من الحرفيين والصناع[٦]، وتم ترحيلهم إلى الأقطار الشرقية حيث قاموا بعمارة تلك البلاد[٧]، وزاد نسل الخوارزميين بها[٨].

وأخذوا البنيين والبنات والنساء اللواتى ينتفع بهن[٩]، وعوملوا جميعا معاملة السبى[١٠]، وقسموا باقى الأسرى على الجيش فقتل كل واحد من الجنود المغول أربعة وعشرين من الرجال[١١] وبعد أن فرغوا من الأهالى نهب المغول المدن وهدموا ما لم

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢.

(٢) كانت وظيفة المحتسب من الوظائف ذات الشأن عند المسلمين بوجه عام، إذ كان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع، ويشرفون على السقايين، وليس السراويل بما لا ينافى الآداب العامة، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا.. واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة (أن يقوموا بتنفيذ أحكامه. النسوى: سيرة جلال، حاشية ١، ص ١٧٢).
وكان المحتسب يقوم بحلف اليمين قبل أن يتولى منصب، حيث يقسم على نفسه أنه سوف يعمل على احترام القوانين وسوف يؤدى عمله على أحسن وجه. الشيرزى: (عبد الرحمن بن نصر)، ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى ط٢، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ/ ١١٩٨م، ص ١٢٧.

(٣) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٧٢، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٦.

(٤) عباس إقبال: المصدر السابق، ص ٨٢.

(٥) النسوى: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٦) عطا ملك الجوينى: المصدر السابق، ص ٣٠٤، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.

(٧) بارتولد: تركستان، ص ٦١٤، السيد الباز العرينى: المغول، ص ١٣١.

(٨) جهان كشا، ص ٣٠٥.

(٩) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.

(١٠) بارتولد: تركستان، ص ٦١٤، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٦.

(١١) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٤، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥، عبد السلام عبد العزيز فهمى، تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص ٦٦.

يهدمـوه فى أثناء القتال. وبذلك دمـر الإقليم الذى لم يكن له مثيل فى هذا العـصر من حيث العمران والرقى وكثرة عدد السكان[١].

استمر حصار خوارزم نحو أربعة أشهر من ذى القعدة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، إلى صفر ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، وقد بلغ القـتلى عددا ضخمـا، مما جعل المؤرخين يمتنعـون عن ذكره ولا يصدقونه[٢].

وفى ذلك يقول الجوينى[٣]: لقد سمعت من عدد القـتلى الذين سقطوا فى أعمال المقاومة والقتال بما يعادل خوارزم حذو الفعل بالفـعل حتى أن ما سمعته لم أصدقه، ولم أكتب عنه شيئا، اللهم عافنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة.

ويقول ابن الأثير[٤]: وهذا ما لم يسمع مثله فى قديـم الزمان وحديثه، نعوز بالله من الخور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله.

هكذا دخل إقليم خوارزم فى حـوزة الدولة المغولية، حيث خـضع إلى جوجى ابن جنكيز خان.

على الرغم من أن الحروب مع ما تلحقه بالإنسانية من أضرار، تقترن بفوائد ثقافية وفكرية تعوض عـلى البلاد المقهـورة بعض ما أصابهـا من خراب ودمـار، أثناء الحرب، حيث يعقب دائما الغزوات الكبرى فى التاريخ فتـرة من الزمن تنتقل فيها حضارة الغالب إلى حضارة المغلوب، ثم يحدث أن تتقابل الحـضارتان وتؤثر إحداهما فى الأخرى وتتأثر بها، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معا[٥].

وخـلاصة القـول أن الغـزو المغولى كـان ولا يزال أكـبر صـدمـة أصابت العـالم الإسـلامى، فلقـد قضى على الدولـة الخوارزمـيـة كمـا اسـتولى المغـول على الأقـاليم الإسلامية، كـما قاموا بتدمير المعـاهد والمدن العلمية التى كانت المراكز الأساسـية لتجمع العلماء والطلاب لـتبادل نشاطـهم الفكرى والعلمى، وقتلوا معظـم العلماء، ورحل من تبقى منهم، إلى البلاد المجاورة، فحرموا بلادهم من العلوم التى كانت سائدة قبيل الغزو

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢.
(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٣، ٣٦٤.
(٣) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢٢.
(٥) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٠٤,

المغولى، واتجـهوا بفكرهم إلى بـعض العلوم الأخرى التى تعـبر عن آلامهـم وأحزانهم، فنجد الفقيه مثلا يعظ بالصفوية، والشاعر ظهر فى شعره معانى التصوف والزهد، كما أن اللغة الفارسـية التى كانت سائدة، قـد امتزجت بها بعض الكلمات المـغولية، هذا المزيج أدى إلى ظهور حضـارة جديدة عبارة عن مزيج مـن الحضارتين معا، فـدخل المغول بعد ذلك فى الإســـلام، وأولوا عنايتـهـم بالعلمـاء والأدباء مـــثل عطا ملك الجـــوينى ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وغيره من العلماء.

* * * * * * *

الخاتمة:

بعد ما سبق عرضه على امتداد صفحات هذا البحث نستطيع أن نستخلص عدة نتائج هامة تتعلق بتطور الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم خلال العصرين السلجوقى والخوارزمى وأهمها:

- لقد لعب إقليم خوارزم دورا بارزا فى تطوير الحياة الفكرية، فقد كانت مدينة الجرجانية العاصمة مركزا رئيسا من مراكز الإشعاع الفكرى، كما كانت منارا للعلم ومقرا للعلماء على اختلاف تخصصاتهم العلمية، حيث انتشرت معاهد العلم وازدهرت الحركة العلمية، حيث شملت مدن وقرى إقليم خوارزم كافة، فخرج منه علماء كان لهم تأثير فى كافة الأقاليم الإسلامية بما نشروه من علم وفكر خلال العصرين السلجوقى والخوارزمى.

- ولقد لعب سلاطين السلاجقة والخوارزميين ووزرائهم دورا بارزا فى تطور الحياة الفكرية، من خلال اهتمامهم بالعلم والعلماء، مما أدى إلى نشاط العلم والتعليم، وازدهار العلوم وضخامة الإنتاج العلمى والأدبى.

- كما كان سلاطين السلاجقة والخوارزميين أنفسهم، يدرسون الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة، بينما كان وزراؤهم على المذهب الشافعى، فقد كان السلاطين يقومون ببناء المدارس والمساجد لتدريس مذهب أبى حنيفة، فى نفس الوقت الذى يقوم الوزراء ببناء مدارس لأصحاب مذهب الأمام الشافعى، مثل السلطان السلجوقى ملكشاه، ووزير نظام الملك، وتكش خوارزمشاه ووزير نظام الملك مسعود بن على، ولقد أدى هذا الاختلاف فى المذهب فى إقليم خوارزم إلى نشاط علمى وفكرى كبيرين تمثل فى نشر هذه المذاهب، وتدريسها، والتأليف فيها، مما نتج عنه هذه المؤلفات الفقهية الشافعية والحنفية.

- وكان لهجرة بعض العلماء واستقرارهم فى إقليم خوارزم أثر مباشر فى تطور الحياة الفكرية، مثل الفقيه الشافعى، «النسوى» ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥، والذى ابتنى مدرسة قبل المدارس النظامية، وذلك لتدريس الفقه على مذهب الإمام الشافعى، وروى عنه أهل خوارزم.

- كما استقر فى إقليم خوارزم أيضا، الأديب والنحوى واللغوى والطبيب ابن جرير الضبى الأصبهانى، ت٥٠٧هـ/ ١١٣م، وهو الذى أدخل مذهب المعتزلة ونشره به،

وتمذهب أهل خوارزم بمذهبه، ومنهم المفسر والأديب النحوى المعتزلى الزمخشرى، ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م.

- وكان أهل خوارزم كلهم على المذهب الحنفى، عدا مدينة خيوق فأهلها شافعية، من أشهر علمائها وفقهائها شهاب الدين الخيوقى، ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م.

- واستقر فى خوارزم أيضا محمد بن عبد الجليل البلخى ثم الخوارزمى ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، المعروف بالرشيد الوطواط الأديب اللغوى الشاعر، وأصبح الكاتب الخاص للسلطان آتسز خوارزمشاه، وابنه إيل أرسلان، ثم ابنة تكش بن إيل أرسلان.

- كما كانت المراسلات بين علماء خوارزم، وعلماء البلدان الإسلامية الأخرى تمثل جانبا مهما من جوانب الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم، مثل مراسلات الرشيد الوطواط لبعض خلفاء وعلماء خوارزم، الذين رحلوا فيها وإليها فى طلب العلم.

- كما كانت للكتب التى دخلت إلى خوارزم، أثرها البالغ فى نشاط الحركة الفكرية، من هذه الكتب، «المعول» فى القراءات، وصحيح البخارى، وصحيح مسلم، ودواوين شعر الرشيد الوطواط، مما نتج عنه حركة علمية مزدهرة تمثلت فى الشرح والتوضيح، والتلخيص والتأليف.

- كما كانت لمؤلفات علماء خوارزم، أهمية خاصة، مثل «الكشاف فى تفسير القرآن» للزمخشرى، والكتب المؤلفة فى علوم الحديث للزمخشرى، ومطهر الدين النوزكاثى، ونجم الدين الكبرى، وغيرهم من علماء الحديث، وكتب الفقه وأصوله التى انتشرت وتطورت على مدى العصرين، فانتشرت المؤلفات على مذهب أبى حنيفة ومناقبه، جنبا إلى جنب مع مؤلفات علماء الشافعية.

- كما كانت العلوم النقلية (الشرعية والأدبية) مرتبطة ارتباطا وثيقا، بالعلوم العقلية، فنجد مثلا المؤرخ، محدثا وفقيها وأديبا، وذلك أن التاريخ يعتمد على السرد القصصى والأدبى مثل الفقيه المؤرخ محمد بن محمود بن عباس بن أرسلان، ت ٥٦٨هـ/ ١١٦٠م، والذى ألف كتاب الكافى فى الفقه مع تاريخ خوارزمشاه.

وهكذا كان إقليم خوارزم فى العصرين السلجوقى والخوارزمى، قد شهد تطورا كبيرا فى الحركة الفكرية، مما جعل منه مركزا من مراكز الإشعاع الفكرى والحضارى، وأضحى مجمعا للعلماء وطلاب العلم، لعرض ومناقشة إنتاجهم العلمى والأدبى فى المعاهد العلمية وخاصة فى قصور السلاطين ومجالس الوزراء، مما نتج عنه حركة فكرية

مـزدهرة، لم تقف عند حـد العرض والمناقـشـة، بل امتـدت إلى الشـروح والتوضـيح والاختصار والتأليف، مما نتج عنه هذا الكم الهائل من المؤلفات العلمية فى مختلف أنواع العلوم النقلية والعقلية، هذه المؤلفات التى كان لها الفـضل الأكبر فى حماية اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بل والإسلام.

وفى تلك الفترة ظهر جنكيز خان والمـغول على مسرح الأحداث وجاورت ممتلكاته أملاك الدولة الخوارزمـية، وشرع فى السيطرة على أقاليم الدولة الخوارزمـية، ولم ينتهى عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، إلا وكان المغول قد استولوا على إقليم خوارزم، وقاموا بهدم هذه المعاهد العلمـية المتمـثلة فى المساجد والمدارس وغـيرها من معـاهد العلم، التى أخرجت هؤلاء العلماء الأجلاء، كما أحرقـوا الكتب والمصاحف، وقاموا بقتل العلماء والطلاب، أما العلماء الذين نجوا من القتل فقد هاجـروا إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى، وغيرها من الأقاليم المجـاورة، فحـرموا إقليم خوارزم وأقـاليم آسيـا الوسطى والعراق من إنتـاجهم العلمى، وأداروا ظهورهم إلى العلوم التى سـادت قبيل الغزو، واتجـهوا إلى العلوم التى تواكب آلامهم وأحزانهم، ولكن يذكر لهؤلاء العلماء أنهم نشروا اللغة الفارسية فى البلاد التى هجروا إليها.

وبعـد أن هدأت الأمـور وانتـهت حـروب المغول، حـدث اخـتـلاط بين المغـول والمسلمين، مما أدى إلى دخول بعض الألفاظ المغولية فى اللغة الفارسية، كما تأثر الوعاظ بالزهد والتصوف فألفوا كتبًا فى ذلك مثل كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» لنجم الدين الرازى المتوفى ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، وتأثر أيضًا الشعراء، فانتشر الشعر الصوفى مثل الشاعر الـصوفى بهاء الدين محـمد، ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، والكاتب محمـد بن أحمد النسوى ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، الذى كان الكاتب الخاص للسلطان جلال الدين منكبرتى، اتجه إلى علم التاريخ، فألف «سيرة جلال الدين منـكبرتى» سرد فيه الغزو المغولى لإقليم خوارزم، ومـحاولات جلال الديـن منكبرتى وجهـاده ضد المغول حـتى توفى ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وبوفاته انتهت الدولة الخوارزمية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم (١)

خلفاء بنى العباس فى العصرين السلجوقى والخوارزمى

* * * * * * *

- الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٧٤م).
- الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٩٤م).
- الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م).
- الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ/ ١١١٨ - ١١٣٤م).
- الخليفة الراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٢هـ/ ١١٣٤ - ١١٣٤م).
- الخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٢ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٧ - ١١٦٠م).
- الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ - ١١٧٠م).
- الخليفة المستضىء بأمر الله (٥٥٦ - ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ - ١١٧٩م).
- الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ - ١٢٢٥م).
- الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣هـ/ ١٢٢٥ - ١٢٢٦م).
- الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦ - ١٢٤٢م).

* * * * * * *